rayqh روايات احلام

ملاك للبيع

rayqh

روايات احلام

ملاك للبيع

وصلت مـايفس باريت بقلب طافح بالمرارة إلى بيت جدها الذي لم تكن تتوقع فيه استقبالاً حافلاً بالورود... لكن جدار العدائية الذي واجهها من جدها وأقاربها المجهولين تجاوز توقعاتها... ثم جاء تدخل دايفد ميرديت ليزيد الطين بلة، فقد اعتبرها فتاة مرتزقة وعرض عليها مبلغاً من المال... لتبقى!

حسناً! إذا كان دايفد يعتقد أنه قادر على شرائها فلن تكذب ظنونه وستمضي وقتاً رائعاً في الانتقام من هذا الرجل المتعجرف قبل أن تخبره في النهاية كم يساوي في رأيها!

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٧٥ ل.س.	قطر ٦ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١,٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ وعد في الذاكرة

لم تضطرب خطط مايڤس باريت إلا بعد أن نزلت من القطار في محطة قرية صغيرة وتقدمت إلى الرجل المسؤول عنها الذي يعمل فيها حمالاً أيضاً. وقفت إلى جانب الجسم البدين القصير المنحني فوق الصندوقين الوحيدين اللذين أنزلا من القطار في محطة «ڤيرني دروفيلد» وسألت:

ـ أيمكنك أن ترشدني إلى أقرب فندق؟

ـ فندق؟

تركت دهشته وهو يستقيم انطباعاً لديها بأنه يظنها قادمة من كوكب آخر.. فكررت السؤال آملة مع أنها عرفت الرد مسبقاً:

ـ أليس هناك فندق في «ڤيرني دروفيلد»؟ نزل، مكان للمنامة.. أستطيع فيه النوم الليلة؟

هز رأسه وأجابها:

ـ هناك فقط «النادي الاجتماعي».

ثم نظر إلى الفتاة النحيلة وإلى شعرها الذهبي الشاحب الذي يداعبه بلطف نسيم أيلول الدافيء وأضاف:

ـ ولا يستضيفون هناك أحداً من الخارج.

عاد الرجل إلى تفحص صندوقيه.. ودون وعي منها نقلت مايڤس حقيبتها من يد إلى أخرى، وتساءلت عما قد تفعله الآن.

تذكرت في حيرتها هذه آخر كلمات قالتها أمها قبل أن تموت منذ

شهر، وتلك الرسالة.. فلولاهما لبقيت في لندن. لكنها عقدت العزم على المجيء إلى «فيرني دروفيلد» وفكرت في أن تمضي ما تبقى من اليوم وجزءاً من الغد قبل أن تتجه إلى «روزبكرز» بحثاً عن المكان الذي كان يقيم فيه والداها في الماضي البعيد.

أدركت الآن أنه كان عليها التأكد قبلاً من وجود مكان تنام فيه.. إضافة إلى وجوب تعديل خططها من جديد.

سألت موظف السكة الحديدية المنحني الظهر:

ـ أليس هناك سيارة أجرة؟

ـ يتوقف هذا على أشياء كثيرة.

أنزلت حقيبتها من يدها بعد أن بدا لها أنها لن تذهب إلى أي مكان بسرعة وسألت:

ـ على ماذا؟

ـ على مدى بعد المكان الذي تقصدينه.

استقام مجدداً فأجبرت مايفس نفسها على الابتسام في وقت لا تشعر فيه بأي رغبة في ذلك.

ـ إلى «روزبكرز».

لمحت نظرة اهتمام مفاجئة لديه، وسأل:

ـ أتعنين مكان إقامة عائلتي ميرديث وباريت؟

إذن هذا ما تعرف به «روزبكرز» محلياً.. مكان إقامة «ميرديث وباريت»؟

ـ هذا ما أعنيه؟

ـ إنها تبعد ثلاثة أميال.. يمكنني الاتصال بتيموتي دانتون.. فقد يقلك إلى هناك إذا لم يكن مشغولاً.

ـ سأكون ممتنة لك لو فعلت.

ابتسمت له آملة الوصول إلى حل ما حين اتجه إلى المبنى الآجري للمحطة.

من المزعج لها أن تضطر للذهاب إلى «روزبكرز» اليوم.. فمجرد التفكير في مواجهة جد لم تره من قبل يُغضبها. إنها بحاجة فعلاً لقضاء ليلة على الأقل في الجوار لأن ذلك يمكنها من جمع شتات نفسها قبل أن تراه.

شكرت الله لأنها سافرت بفستانها القطني القماش بدل بنطلون الجينز الموجود في حقيبتها الذي سترتديه حالما تجد غرفة تنام فيها.. كان فستانها أخضر فاتحاً، تنورته نصف متسعة، يبرز أناقته وشاح من الحرير الأخضر المرقط بالأبيض، وكان آنق فستان في خزانة ملابسها.

قال الرجل القصير البدين:

ـ أنت محظوظة.. تيم قادم في طريقه إلى هنا.. هل جئت تسعين لوظيفة؟

ـ لا شيء من هذا.

كانت غير راغبة في إعطائه أو إعطاء القرية موضوعاً للثرثرة، وهذا ما سيحدث لو قالت له إنها ذاهبة إلى «روزبكرز» لرؤية جدها.. فلم يكن التفكير في ذلك الرجل واللقاء به حدثاً يسرها، وأكملت:

ـ سأنتظر خارجاً.

لكن في باحة المحطة وجدت أن كراهيتها التي تتفاعل في نفسها بمجرد التفكير في اسم الرجل ما تزال موجودة تلاحقها. ومرة أخرى رأت اسمه مكتوباً بخط يده في أسفل الرسالة التي وجدتها بين مقتنيات أمها، أما تاريخ تلك الرسالة فيعود إلى ست سنوات مضت تحتوي أخباراً أعلمته بها أمها عن موت ابنه.. والد مايفس.

تذكرت مايفس مرة أخرى وهي تنتظر السيارة لحظة أدارت أمها رأسها المتعب وهمست:

ـ مايفس.. اذهبي إلى.. «روزبكرز».

ودهشت مايفس، لكنها وافقت.. كانت ستوافق على أي طلب لأمها، ووعدتها برقة:

ـ سأذهب أيتها الغالية.

عرفت أن أمها ضعيفة جداً لذلك لم تشأ أن تطرح عليها الأسئلة عن سبب طلبها الغريب الذي بدا لها شديد الأهمية فجأة. كان والدها قد ترك موطنه منذ ثلاثة وعشرين سنة، ولم يتوقف في طريقه سوى مرة واحدة لاصطحاب حبيبته سالي الفتاة النحيلة الضعيفة التي تعيش وحيدة بعد موت عمتها العجوز. ولم يعد أي منهما إلى موطنه بعد ذلك.. وهذا ما أثار تساؤلاً في رأس مايفس عن السبب الذي دفع أمها إلى الطلب منها أن تعود إلى «ڤيرني دروفيلد».

أصابها حزن شديد بعد موت أمها كادت معه تنسى وعدها الذي قطعته.. لكن بعد أسبوع من ذلك راحت مايفس توضب أشياء أمها الخاصة والدموع تجري على خديها. حاولت إبعاد الحزن عنها والتفكير بالأيام القادمة.. فالحياة مستمرة ويجب عليها أن تسعى للحصول على عمل قريباً.. مسحت دموعها وأبعدت ثياب أمها.. فكرت بأن تقصد ويليس غراهام رب عملها السابق الذي كان صديقاً حقيقياً لها، لكن لا شك لديه سكرتيرة جديدة الآن.

كانت قد ذهبت للعمل لدى ويليس في مكتب التأمين الذي يديره وهي في السادسة عشرة، وكان من حظها وجود شقة خالية معروضة للإيجار فوق مكتب غراهام.. وهذا الأمر مكنها من تفقد أمها بين حين وآخر لترى ما إذا كانت في حال جيدة.

وسارت الأمور على ما يرام إلى أن حل شهر أيار الذي فيه نقلت أمها إلى المستشفى إثر إصابتها بنوبة قلبية، لم تستعد عافيتها منها إلا جزئياً.. ولا زالت مايفس تتذكر الصدمة التي شعرت بها حين أخبرها الطبيب أن أمها لن تعيش حتى آخر السنة.. قدمت استقالتها إلى ويليس بعد أن قامت بحساباتها ووجدت أن ما ادخرته من مال يكاد يكفيها.. لكن مديرها احتج:

- لا يمكنك ترك العمل.. أنت معي منذ أربع سنوات وتعرفين كل شيء في المكتب..

قاطعته:

- أريد أن أمضي أطول مدة ممكنة مع أمي.

وحاولت جاهدة أن لا تنهار أمامه وتخبره بأن أمها لن تعيش طويلاً.

قال الرجل الرملي الشعر الأبوي العاطفة، والبالغ من العمر اثنان وأربعون عاماً.

- وهل الأمر بهذا السوء طفلتي؟

جاهدت بقوة لئلا تبكي وقالت بابتسامة دامعة:

- سأكون موجودة في الطابق العلوي وسأقوم بمساعدتك إن وجدت صعوبة أثناء قيامك بتدريب سكرتيرة أخرى.

لكنها لم تبك ساعتها ولم تبك حتى يوم جنازة أمها.. بل لم تبك في ذلك اليوم إلا بعد أن أكدت لويليس وزوجته موير أنها ستكون على ما يرام، ثم أغلقت باب شقتها وجلست وحيدة تنتحب وتنتحب...

كانت لا تزال تبكي وهي توضب ثياب أمها، حين وجدت الرسالة في حقيبة يد قديمة لم ترمها أمها.

فكرت مايفس أن الرسالة شيء شخصي جداً، وحارت بين أمرين: أتخرجها من مغلفها العتيق وتقرأها أم لا تخرجها؟ لكن، وبما أن أحداً من قبل لم يكتب لهما عدا الرسائل الحكومية والفواتير، وبوجود عنوانهما القديم على المغلف، فربما يكون المرسل شخص يتوجب عليها أن تراسله لإعلامه بأن أمها قد فارقت الحياة.

أخرجت الرسالة من المغلف الفاخر، ونظرت أولاً فرأت اسم المرسل، وقرأت التوقيع الرسمي: «نيلسون باريت» والعنوان الذي كان «روزيكرز.. ڤيرني دروفيلد».. فتذكرت ساعتها الوعد الذي قطعته لأمها. تملكها غضب شديد وهي تقرأ الرسالة وجفت الدموع التي كانت رفيقها الدائم في الأيام الأخيرة.

كتب جدها بخط واضح جريء:

- «سيدتي..»

وكأنه لا يعرف أن اسم أمها مالي.

«تستدعي اللياقة أن أعلمك بتسلمي إخطارك لي بموت ولدي.. لكن عليّ أن أذكرك أن ريتشارد باريت غاب عن الوجود بالنسبة لي يوم خرج من بيته ضارباً مشاعر عائلته عرض الحائط.. وكما تعرفين فقد أنكرني ولدي يوم أدار ظهره، ليس أنا فقط بل عائلته ليذهب مع معاقة مفلسة..».

شهقت مايفس لهذه اللهجة القاسية، لكنها تابعت:

«في وقت لم يكن فيه مؤهلاً للاعتناء بنفسه فكيف بزوجة مريضة.. وأدار كذلك ظهره لموطنه، لمسؤولياته، ولعمله».

صعقتها القسوة التي تحتويها الرسالة ضد أمها ولم تستطع تصديق آخر فقرة، وكادت تختنق بغضب عاصف حين تابعت القراءة:

«لا أستطيع سوى أن أفترض، بما أن وفاة ابني قد سبقت وفاتك، أن صحتك قد تحسنت كثيراً فقد مات ابني قبلك.. وهذا ما يدفعني إلى إعلامك بأنك لن تجني شيئاً من وراء مراسلتي مرة أخرى فلا أنوي أبداً دعمك مالياً مهما كان الدعم ضئيلاً».

وكانت قد سبق وقرأت التوقيع: نيلسون باريت.. لكنها أعادت قراءة الرسالة مرة أخرى.. ومع ذكرى أمها الطيبة اللطيفة الضعيفة التي لا تزال حية في ذاكرتها، والتي لم تمد يدها يوماً للاستعانة بأحد تحت وطأة أي ضغط مالي.. دخل الحقد قلبها.. وكرهت ذلك الرجل الذي أنجب والدها السعيد المنطلق، ولامت أمها للحظات.. تلك الأم التي دفعتها طيبتها الطبيعية إلى اطلاع ذلك العجوز الخسيس على موت ابنه وجعلتها توشك أن تطلب منه يد العون.

حاولت يومها أن تكبت اندفاعها للذهاب إلى جدها وإعلان رأيها فيه على مسمع منه.. فقد كانت أمها بالرغم من فقرها سيدة محترمة.. ولن تقبل أبداً أن تزحف ابنتها إلى «فيرني دروفيلد» لتعلم نيلسون باريت رأيها فيه.

بعد ثلاثة أسابيع من هذا، ومع أنها كانت لا تزال غاضبة، إلا أن

فورتها قد هدأت قليلاً وفكرت بأن تبعث رسالة بنفسها.. رسالة إلى جدها تعلمه فيها بموت أمها مع كلمات ساخرة تقول فيها إنها ستكون ممتنة جداً له إذا لم يعرض عليها الدعم المالي، لأنها دقيقة جداً في تحديد الجهة التي تقبل منها المال.

لكن، وبما أن ذكرى وفاة أمها لا زالت حديثة، فقد كان وعدها لها بأن تذهب إلى «روزكيرز» يفرض نفسه على تفكيرها وأدركت رغم استيائها أنها لن تتمكن من بعث الرسالة الساخرة التي عقدت العزم على كتابتها إلى جدها، لأن الوعد يجب أن يُنفذ.

انتشلها من أفكارها هدير سيارة قديمة تدخل إلى فناء المحطة.. دفع رجل نحيل الوجه برأسه من نافذة السيارة المفتوحة وسألها:

ـ أنت من يريد الذهاب إلى أملاك ميرديث وباريت؟

وبما أنها الوحيدة الواقفة هناك، فقد بدا لها أن هذا الرجل محدود الذكاء، وقالت:

ـ لحظة من فضلك.. أريد الاستعلام عن موعد القطار التالي إلى لندن.

قال السائق الذي نظر متسائلاً إلى حقيبتها الصغيرة:

ـ في الساعة السادسة مساء.

صعدت إلى التاكسي وسبقها تفكيرها إلى المكان الذي تقصده.. وأدركت فجأة بينما كانت السيارة تصدر أصواتاً غريبة ومزعجة أثناء خروجها من فناء المحطة أنها لا تعرف الكثير عن عائلة والدها.

لم تسمع أحاديث من والدها حول عائلته، لكنها عبر حديث بعيد تتذكره، عرفت أن والدها لم يكن الولد الوحيد في عائلته، وإذا صدقت ذاكرتها، فلديه شقيقة متزوجة تدعى كلود إلين كانت تعيش في روزيكرز منذ ثلاث وعشرين سنة.. مع زوجها وطفلها الذي تذكر أن اسمه كلارك، ولا شك أنه أصبح الآن رجلاً كبيراً.

فتشت مايفس عن المزيد في خبايا ذاكرتها واستطاعت خلال ما تبقى

من الرحلة أن تجمع معلومات قليلة من كلام أمها وأبيها، الأمر الذي كون لديها صورة مبسطة عن كيفية بدء كل شيء.

استطاعت من خلال المعلومات المتقطعة التي سمعتها سابقاً أن تفهم القليل. فقد كان جدها نيلسون باريت وشيرمان ميرديت مهندسين من عائلتين ثريتين، أسسا معاً مصانع ميرديت وباريت.. وكان الرجلان يمضيان أغلب أوقاتهما في المصنع، الأمر الذي دفع زوجتيهما إلى التفكير عميقاً في حل لهذه المسألة، فوجدتا أنهما إذا كانتا ترغبان في رؤية زوجيهما، فعليهما السكن في منزل لا يكفي العائلتين فحسب، بل يتسع لمكتب كبير كذلك.. هكذا يمكن للرجلين أن ينكبا على رسوماتهما كما يحلو لهما؛ بينما تطمئن المرأتان لأن زوجيهما موجودان في البيت.

لا بد أن التاكسي كان يصعد تلة منذ بعض الوقت حين أدركت مايفس أنها تعرف عن العائلة أكثر مما اعتقدت، وأدركت كذلك أن «روزيكرز» هي بدون شك أملاك واسعة إذا كانت لا تزال تضم أفراد العائلتين.

لكنها لم تشعر بأي سعادة لرباط الدم الذي يربطها بتلك المؤسسة العائلية التي تعد من أشهر الأسماء العالمية في مجالات الهندسة.. كل ما تريده بعد أن توقف التاكسي أمام مسكن طويل مريع، هو أن تفي بوعدها لأمها وهي على فراش الموت.. بأن تأتي إلى «روزيكرز» وأن تخرج من هناك لتلحق بقطار السادسة العائد إلى لندن.

قالت للسائق:

ـ أيمكنك أن تنتظرني؟

وبدا السائق مهتماً بعظمة المنزل والمروج المحيطة به أكثر من اهتمامه بأجرته.. وهز رأسه.. فقطعت مايفس الطريق المرصوف بالحصى، فسمات وجهها متشددة وهي تتسلق السلم المؤدي إلى باب ضخم. استجمعت شجاعتها ورنت جرس الباب وانتظرت.. لن تجعل ذكرى تلك الرسالة تغضبها، ستبقى وقورة متحفظة، إنها مدينة بهذا لذكرى أمها.

انفتح الباب الأمامي وظهرت امرأة في ثوب أسود.. فقالت مايفس:

ـ جئت لرؤية السيد باريت.. السيد نيلسون باريت.

لكن هذا التعريف لم يكن ضرورياً فليس هناك سوى سيد باريت واحد يسكن هنا.

قالت السيدة الممتلئة الجسم:

ـ أخشى ألا يكون السيد باريت موجوداً.

ولم تضف شيئاً آخر.

ترددت مايفس، واضطرت إلى تذكير نفسها أن وعدها لأمها سوف يلاحقها ويجعلها تقوم برحلة أخرى إذا تراجعت الآن.

أضافت المرأة بعد قليل:

ـ الجميع في الخارج.

قررت مايفس عندها أن تعرف عن نفسها.. فسألت المرأة بكبرياء لم تكن تعرف أنها تمتلكه غير آبهة أن تكون هذه السيدة عمتها أو أي شخص آخر: ومن أنت؟

ـ أنا مديرة المنزل.. السيدة أوكنر.

كان على وجه المرأة تعبير يدل على أن تصرف مايفس مألوف لديها.

ـ في أي وقت تتوقعين عودة السيدة باريت؟

ردت المرأة باحترام:

ـ حوالي الرابعة.. آنسة.

تفحصت مايفس ساعتها لتجد أنها الثالثة.. حسبت الوقت بسرعة وقدرت أن بإمكانها اللحاق بقطار السادسة حتى ولو اضطرت للسير ثلاثة أميال لتقصد المحطة، فالطريق تتجه نزولاً على أي حال.

ـ انتظري لحظة سيدة أوكنر، أتسمحين؟

عادت بسرعة إلى السائق ودفعت له الأجرة. وبما أنها لا تعرف موعد عودة جدها بالضبط فلم تتمكن من أن تطلب منه العودة لنقلها. ورجعت تحمل حقيبتها الصغيرة إلى مديرة المنزل المنتظرة، بينما كان السائق يبتعد

في الطريق الداخلية.

قالت مايشس، مضطرة للاعتراف:

ـ أنا قريبة للسيد باريت.

بدا الارتباك على المرأة.. وخمنت مايشس أنها غير معتادة على السماح لأحد بالدخول قبل أن تتأكد من هويته.. فابتسمت تقول:

ـ أنا من آل باريت كذلك.. وأؤكد لك أنني لست هنا لأسرق كنوز العائلة.

اسمها والنبرة المتسلطة في صوتها جعلا السيدة أوكنر تستسلم.. لكن حين ولجت إلى داخل الردهة المغطاة بسجاد سميك، اختفت كل تعابير الابتسام عن وجه مايشس.. إنها الآن في منزل ذلك الرجل الظالم، الذي أنكر ابنه وحاول من خلال خطابه الحط من قدر زوجة ابنه، وبدا أن المنزل كله معاد لها.. مجرد وجودها داخله جعلها تشعر بالعداء ودفعها إلى الرغبة في المغادرة دون أن تضطر إلى رؤية ذلك الرجل الذي تشعر بالكراهية نحوه، حتى ولو أنها لا تعرفه.

لاحظت تردد السيدة أوكنر، فبعد أن أقفلت الباب بدت وكأنها غير واثقة من أنها فعلت ما هو صائب.. قالت مايشس:

ـ سأنتظر في غرفة الجلوس.

ثم دفعت بذكرياتها بعيداً حين راحت مدبرة المنزل ترشدها إلى غرفة مرتفعة السقف.. لم تكن على خلاف مع السيدة أوكنر، لذا كان من واجبها أن تريح بال المرأة الطيبة.

ـ سيسر السيد باريت لزيارتي.. أؤكد لك.

لكنها لم تكن مقتنعة بكلامها.. فهو لم يرغب برؤية والدها منذ غادر المنزل.. ولن يكون لديه الوقت لابنته.. وهذا أمر يناسبها تماماً.

بدا الارتياح على وجه المرأة.. لكن في المقابل جعلت مايشس تشعر بالارتباك حين سألتها:

ـ هل تتناولين الشاي آنسة باريت؟

إنها عطشى وسيكون من المنعش جداً تناول فنجان شاي.. لكنها لا تريد أي شيء من منزل جدها. لكن.. أوه.. ما الفائدة.. لقد شعرت بارتباك السيدة أوكنر التي لا شك ستشعر بارتياح أكثر إن قامت بمهمتها المعتادة، أما المبادىء فشيء مغاير تماماً..

شكرتها بلباقة:

ـ سيكون هذا مقبولاً جداً.

نظرت مايشس حولها في الغرفة بعد أن غادرتها مدبرة المنزل، ولاحظت أن الأثاث الموجود فيها ينم عن ذوق رفيع.. تقدمت لتتفحص واحدة من اللوحات الرائعة المعلقة على الجدران.. لاحظت التناقض الكبير بين هذا المنزل، والمنزل الذي جاءت منه.

كان الأثاث الموجود في الشقة الصغيرة التي شاركتها مع أمها رخيص الثمن، ولقد تم نقله أيضاً إلى الشقة فوق المكتب.. لم تكن أوضاعهم تتحسن كثيراً مع مرض أمها الدائم حتى قبل وفاة والدها، إذ كان الوالد غالباً ما يضطر إلى الغياب عن العمل ليعتني بزوجته وطفلته.. وبما أنه ما من رب عمل مستعد لتحمل تغيبه المستمر، فقد كان يضطر للبقاء أغلب أوقاته دون عمل.

عادت السيدة أوكنر تحمل صينية الشاي ووضعتها على طاولة صغيرة، فأزاحت مايشس أفكارها مؤقتاً وتقدمت لتجلس قرب الطاولة، ثم قالت بأدب:

ـ شكراً سيدة أوكنر..

تركتها المرأة لوحدها، فصبت مايشس الشاي في كوب من الخزف الصيني وعادت إلى استكمال ذكرياتها.. كانت تقارب الرابعة عشرة كما تذكر، حين بدأ والدها يوفق في أعماله وتمكنت من مساعدته في الاعتناء بأمها حتى ولو لزم الأمر التغيب عن المدرسة.. لكن والدها أصيب بالتهاب حاد تبعته مضاعفات سببها عودته السريعة إلى العمل.. وفجأة.. لم يعد الرجل الطيب القلب، الضاحك العينين موجوداً.. وبدأت دموعها

تسيل وهي تتذكر كم بدت أمها مذمرة في تلك الأيام.

فجأة سمعت صرير الباب وأصواتاً مختلطة في الردهة.. وعادت إليها كراهيتها.. لا وقت الآن للدموع.. هناك عشرون دقيقة أخرى قبل أن تعلن الساعة الرابعة، وستواجه الرجل الذي تنكر لوالدها وحاول الحط من قدر أمها.

اعتراها الغضب البارد مجدداً عند تذكرها الرسالة، وأعادت فنجان الشاي إلى الصينية.. جلست بترفع في مقعد واسع رائع، وحقيبتها إلى جانبها، مرفقها مستند إلى حافة المقعد دونما اكتراث، ويداها معقودتان في حجرها.. ساقاها متقاطعتان بأناقة عند الكاحلين.. ستبدو لأي مراقب لها مرتاحة وفي منزلها.

خيل لمايڤس أنها سمعت صوت مدبرة المنزل المرتفع النبرة، ثم رنة صوت أعمق.. ارتفع ذقنها قليلاً حين تحركت إكرة الباب التي تركزت عليها عيناها، كي يظن كل من يراها أنها ليست مخلوقة أقل شأناً من أي فرد من عائلة أبيها.

لكن الرجل الذي دفع الباب بطريقة متعجرفة دلت بصراحة أنه لا يأبه لمن يستمع إليه وتركه مفتوحاً، لم يكن يقارب السبعين من العمر الذي قدّرته لجدها.

وقف الرجل الرياضي الجسم الطويل القامة والأسود الشعر للحظة طويلة ينظر إلى مظهرها الهادىء.. هل هذا ابن عمتها.. كلارك.. لا شك أنه الآن في الثالثة أو الرابعة والعشرين.. لكن هذا الرجل الذي لم ينفوه بكلمة بعد والذي راح يتفحصها بدقة، يبدو في منتصف الثلاثينات. وهذا ما ينفي كونه والد ابن عمتها كذلك.

تقدم الرجل الأسود الشعر دون كلام إلى داخل الغرفة وتبعته عينا مايڤس وهي ترى نظرته تتجه إلى الحقيبة. كانت تعابير وجهه للحظات مخفية عنها لجلوسها على خط واحد مع شعاع شمس يدخل الغرفة.

اقترب أكثر وابتعد عن شعاع الشمس، فبدت واضحة تعابير وجهه مع

الكثير من العجرفة فوق أنفه المستقيم وفمه المشدود.

سأل باقتضاب: من أنت؟

يبدو أنه اكتفى من التفرس بها من الرأس حتى أخمص القدمين، ولم ترَ في نظرته سوى الارتياب وفي صوته سلطة وكأنه معتاد على إعطاء الأوامر، وتلقي الردود بدقة.. أوليس لديها أخبار تصدمه؟

ردت وقد أضجرتها تصرفاته:

ـ قد أطرح عليك ذات السؤال.

ضاقت عيناه.. لم يعجبه أبداً أنها لم تخبره عن سبب زيارتها.. لكنها لم تأت إلى هنا ليتسلط عليها أحد أو يرهبها.. وبكل تأكيد ليس من شخص تدلها غريزتها أنه غريب عنها، بقدر ما تحس أن وجودها هو الغريب.

قال يدس يديه في جيبي بنطلونه:

ـ تقول السيدة أوكنر إنك تسمين نفسك باريت.

اغتاظت مايڤس من طريقة كلام الرجل، وأجابت ببرود:

ـ ولمَ لا أفعل؟ إنه اسمي.

قال بصوت هادىء:

ـ هل تدعين نوعاً من القرابة لأسرة باريت؟

بدأ صوتها يأخذ رنة حدة.. فهذا آخر شيء يمكن أن تدعيه إذا كان الباقون من سلالة الجد مثله. ومع ذلك أنبأتها حاسة سادسة بأن هذا الرجل ليس من عائلة باريت، فقالت محاولة استجماع ذكرياتها.

ـ لا بد أنك ميرديت.

ـ هذا لا يظهر ذكاءً لامعاً.. فروزيكرز مشهورة باسم ميرديت وباريت منذ أكثر من أربعين سنة.

سألت:

ـ وهل ولدت هنا؟

ثم وافتها الذاكرة بما كانت ترغب به:

- لا بد أنك دايف ميرديت . أذكر أن والدي أخبرني أنك حتى في سن الحادية عشرة كنت على وشك أن تصبح الشخص المغضوب عليه، كالذي كانه هو في مراهقته.

- والدك؟

تلفظ بالكلمة بحدة، ولم تتأكد من صحة حدسها حول كونه دايف ميرديت ابن الشريك الأكبر في شركة هندسة ميرديت وباريت لكنها عرفت، وعيناه تجوبان عليها للمرة الثالثة، أنه كان يقوم بتفتيش سريع في الماضي.

ومع بدء قوله: أنت . . ! عرفت أنه حدد هويتها.

- أنا ابنة ريتشارد باريت.

ولم تكن مضطرة للقول بأنها فخورة بهذا، لأن فخرها كان بارزاً في كل حركة منها.

لكنه هاجمها قبل أن تستطيع التفكير.

- وهل بإمكانك إثبات هذا . .؟ فمما عرفته، كانت زوجة ريتشارد أضعف من أن تنجب أولاداً.

ردت ببرود:

- إذن، ألست مفاجأة جميلة؟ . . أجل . . أجل . . أستطيع الإثبات.

كان عليها أن تبذل جهداً كبيراً كي تخفي الدموع. وتذكرت أن أمها خاطرت كثيراً بحياتها من أجل إنجابها.

نمّتْ نبرة صوته عن سخرية، الأمر الذي أنباها بأنه لا زال يرتاب بها كثيراً.

- وهل تحملين معك شهادة ميلادك؟ هذا تفكير سليم منك.

لم يعجبها أبداً شكه بها فأجابت:

- أنا لا أحب ترك أي شيء للصدف.

عاد إلى هجومه الحاد:

- ولماذا جئت؟

كان سؤاله وقحاً. لكن ظنونه كانت واضحة من نظرته إلى حقيبتها الصغيرة. . وتحولت مايڤس من البرود المتوتر إلى الغضب لتفكيرها أنه بظنها جاءت لذات الهدف الذي اعتقد جدها سابقاً أن أمها تسعى إليه، وواجهت صعوبة في كبت غضبها.

قالت له بحدة لاذعة: هذا شأني.

اتجه نحو الباب دون كلمة أخرى وكأنه ينوي إقفاله كي يستطيع التفاهم معها. . ولاحظت أنه مصمم على جعل المسألة من شأنه. . إذ كانت كل حركة من حركاته تنم عن هذا التصميم.

قبل أن يشرع بإقفال الباب، أطل رجل آت من جهة الردهة ودخل إلى الغرفة. . كان أبيض الشعر متوسط الطول، نحيل الجسم، ومنتصب القامة، ويبدو مفعماً بالحيوية وذكياً. . لا يطابق أبداً فكرة أي شخص عن عجوز في السبعين من عمره. . وبدا لها قوياً كذلك. قال بدون أي انفعال في صوته إذ لم يكن قد رآها بعد:

- دايف. . نعلم أن. .

وشاهدها. . فتوقف عن الكلام.

نظرت مايڤس إليه وهو يدخل الغرفة، لتجد أنها وبالرغم من تصميمها على عدم إبداء أي دليل احترام لجدها، تقف على قدميها.

راقبته بصمت وهو يتقدم نحوها أكثر. . ثم توقف وحدق بها للحظات طويلة، فرأت خطوط عبوس عميقة تحفر جبينه. . لكن لم يكن لديها أي كلمة تقولها له تماماً كما بدا عليه، واستدار إلى الرجل الذي كان يراقبهما بنظرات ثابتة قرب الباب، فتحرك من مكانه وتقدم إليهما.

وهكذا تُرك لدايڤد ميرديت أمر تعريف الاثنين على بعضهما. الرجل العجوز الذي لا يزال يتمتع برشاقة من هو أصغر منه بسنوات، والمرأة الشابة التي لم يكن وجهها المتجهم يفصح عن أي شيء من رأيها الوضيع به.

قال دايف ميرديت:

ـ هذه.. المرأة تدعي أنها حفيدتك سيدي.. تقول إنها ابنة ريتشارد.

***

٢ ـ حرب، وطعنة داعية

بقيت مايفس مصدومة وصامتة للحظات، بعد إعلان دايف ميرديث عن هويتها التي تدعيها حسب رأيه. نظر إليها نيلسون باريت وكأنه عاصفة رعدية.. وأدركت في لحظتها ومن خلال نظرته غير المصدقة أنه لم يخطر بباله قط أن يكون والدها قد رزق بذرية.

كان دايف ميرديث مستمراً بمراقبتهما حين خرج جدها من صدمته، وصاح بصوت أجش:

ـ ابنة ريتشارد؟ أنت تقولين.. إنك.. ابنة ريتشارد؟

كان عدم التصديق يبدو واضحاً في صوته الذي لم يرتجف أو يضعف رغم صدمته..

قالت وهي تنظر مباشرة إلى عينيه الزرقاوين الشاحبتين:

ـ مايفس باريت.. في خدمتك.

ـ مايفس..؟

ردد اسمها متعجباً وكأنما دون إرادة منه، فلم تفهم سبب ذلك. كانت تعرف أنها سميت باسم أمه.. لكن، بالنسبة لدايف ميرديث، فلا شك أنها تستطيع تخمين ما كان يفكر به.. على الأرجح يظنها تختلق الاسم لمجرد الوصول إلى العجوز.. لكنها لن تهتم أبداً لرأيه فهي هنا لتتعامل مع نيلسون باريت الذي كان قد استعاد وعيه من سماع اسمها ليظهر أنه ليس ضعيفاً أبداً كما ظنت.

سألها فجأة وعدم التصديق في صوته:

www.ewity.com

ـ أيمكنك إثبات ما تقولين؟

أغضبها عدم تصديقه.. وجعلها تتساءل لماذا أزعجت نفسها بالمجيء.. ثم تذكرت أنها هنا لأن هذا ما طلبته أمها منها.

قالت والسخرية تنضح من كلامها:

ـ واضح أنك مغتبط برؤيتي!

جاءها الرد الحاد:

ـ سالي تايلور كانت أضعف من أن تنجب.

تطاير الشرر من عينيها الخضراوين لسماع هذا الرجل الذي كتب تلك الرسالة الرهيبة يذكر اسم أمها:

ـ حسناً.. لقد أنجبتني!

كان جدها شريراً بقدر ما تصورته.. ولم تستطع أن تشعر بميل لأي من الرجلين في الغرفة.. وارتفعت ذقن العجوز في ذات الزاوية لارتفاع ذقنها، وكرر السؤال نفسه الذي سأله دايف ميرديث منذ دقائق.

ـ لماذا جئت؟

ردت باختصار:

ـ هل أنت واثق أنه ليس ابنك؟

وأشارت إلى الرجل الأسود الشعر الذي لم يتدخل في الحديث حتى الآن، لكنه يبدو على استعداد لذلك إذا احتاج نيلسون باريت إلى خدماته.. وأكملت:

ـ أنت شكاك مثله تماماً.

كان لدايف ميرديث في هذه اللحظة شيء يقوله، فقد سمع هدير سيارة مسرعة جداً تتقدم في الطريق الداخلية للمنزل، فتدخل مقترحاً على العجوز:

ـ ربما غرفة جلوسك الخاصة مكان أفضل لمتابعة النقاش.

قال نيلسون باريت:

ـ ستكون خلوة أفضل من هنا.

التفت إلى مايفس:

ـ تعالي معي.

كان واضحاً لها أن القادم، كائناً من يكون، هو شخص آخر ستضطر لتحمل شكوكه، وبما أنها ليست واثقة من قدرتها على مواجهة أي منهم، فقد وجدت مايفس أن هذه فكرة جيدة، وأنهما سيكونان في خلوة أفضل.. فقبلت:

ـ تفضل أمامي.

لكنها تأخرت قليلاً بعد أن نسيت حقيبتها، لتكتشف أن دايف لم ينسها.. وقال بسخرية وهو يلتقطها:

ـ لا تنسي هذه.

وأعطاها لها وكأنه يريد القول إنه لا يريد لها أثراً في الغرفة.

أخذتها منه دون شكر ولحقت بجدها إلى الباب المفتوح، وهناك استدارت وفي نيتها القول لدايف إنها لا ترغب في وجوده لكنها وجدت أنه لم يتحرك ليلحق بهما.. واضح أنه باق ليرحب بالقادم.

اجتازت الردهة لتدخل غرفة تحتوي على طقم مفروشات من ثلاث قطع.. خزانة كتب متعددة الرفوف، منضدة كتابة صغيرة، ومقعد قرب النافذة.

قال نيلسون باريت بعد أن أقفل الباب:

ـ اجلسي.. وأخبريني لماذا يجب أن أصدق أنك من تدعين.

ـ بصراحة، أنا لا أهتم أبداً أكنت تصدق أم لا.. وسأبقى واقفة إذا كنت لا تمانع.. فأنا لن أمكث هنا طويلاً.. وما كنت أتيت أبداً لولا أن طلبت أمي مني هذا..

قاطعها بحدة:

ـ أمك طلبت منك المجيء؟

ـ على عكس اعتقادك الدائم.. أمي، أبي، وأنا كذلك، لا نريد شيئاً منك.. أمي لم ترسلني إلى هنا لأمد يدي! فالرسالة التي بعثتها لها حين

مات والدي تحت وهم أننا نريد شيئاً منك، كانت أكثر من كافية لنعرف أنه من الأشرف لنا الموت جوعاً على قبول بنس واحد منك.

ـ وهل.. رأيت تلك الرسالة؟

ودون أن ترد، فتحت حقيبتها وناولته الرسالة. ولم يدهشها أنه لم يقرأها وأنه تذكرها فوراً..

لم يكن تصديق العجوز لها ما أدهشها بعد تسليمها الرسالة، بل أمر مختلف تماماً، ذلك أن الفظاظة التي أظهرها لها تلاشت بدورها، وبدا كأنه يعتذر عن الطريقة التي كتب فيها، وقال بصوت متهدج:

ـ كنت.. متكدراً.. في ذلك الوقت.. لم يبدُ لي من الإنصاف أن.. أن يموت ابني، وأن تبقى المرأة التي كان يحب الجميع أنها لن تصل إلى سن الثلاثين حية.

لم تكن مايفس تتوقع أن تسمع ما يشبه الاعتذار منه، وأن تجده نادماً على ما كتب، وهذا ما أظهر خجلاً في كراهيتها له.. وكادت تلين حين سمعته يقول بتأثر إنه بالرغم من إنكاره لابنه، لا زال يشعر بمشاعر الأبوة نحوه.

لكن إحساسها هذا كان قبل أن تتذكر أن أمها كانت متكدرة أيضاً في ذلك الوقت، بل مدمرة في الواقع. وأضيفت إلى معاناتها تلك الرسالة التي أرسلها هذا الرجل الأبيض الشعر.

قالت ببرود:

ـ إذا كنت تنتظر الموت لأمي، فقد حصلت عليه الآن.. لقد ماتت منذ شهر.

لم يقدم لها العزاء المزيف، وسرّها أنه لم يفعل. لكن صوته كان رقيقاً وهو يذكرها:

ـ قلت إن أمك طلبت منك المجيء إلى «روزيكرز».. هل كانت تعني أن تأتي لتعيشي هنا؟

أنكرت بمرارة:

ـ هذا ما لم تعنه إطلاقاً.

لكن، وبما أنه لا فكرة لديها عن سبب طلب أمها منها المجيء إلى هنا، فقد رفضت أن يمر بخلد هذا الرجل أن أمها كانت تفكر بأن تجعلها تسكن «روزيكرز» ولو للحظة واحدة.. وقالت له بصراحة:

ـ لست أدري لماذا أرادتني أن أجيء.. لكن بما أنني الآن وفيت بوعدي لها، أقول لك وداعاً.

لم تمد يدها لتصافحه.. وأحست برغبة مفاجئة بالبكاء، وأرادت الخروج بسرعة.. فأمسكت حقيبتها وتحركت نحو الباب.

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

أوقفها صوت جدها الذي عاد إلى خشونته حين كانت تمد أصابعها إلى مقبض الباب، فردت:

ـ إلى المكان الذي أتيت منه.

وأدارت المقبض.

ـ لم أر سيارتك في الخارج.

سيارة! لا يمكنها تحمل شراء دراجة! قالت وهي تفتح الباب:

ـ جئت بالقطار.. وهناك واحد عائد في السادسة.

ـ ليس يوم السبت، لا يوجد قطارات.

استدارت مايفس بسرعة، وشهقت قائلة:

ـ قطار السادسة إلى لندن.. لا يعود يوم السبت! لكن سائق التاكسي قال..

ـ إذا كان تيموثي دانتون، فرأسه مشغول بحديقة الزهور خاصته بحيث لا يعرف السبت من الاثنين. ليس هناك قطار عائد إلى لندن اليوم.

نظرت إليه ببرود وأخفت خيبة أملها قدر ما تستطيع ثم قالت بجمود:

وداعاً.

واستدارت مرة أخرى إلى الباب.

قال جدها مجدداً:

ـ لقد قلت لك . . ليس هناك قطار يخرج من «فيرني دروفيلد» اليوم.

ـ سمعتك . . لكن حتى في هذه البقعة المنعزلة لا شك سأجد شخصاً ما في القرية مستعداً لإيوائي لليلة واحدة.

ـ هل ستفعلين هذا بي؟

قطبت بانزعاج لتأخيره لها:

ـ أفعل ماذا بك؟

ـ عائلة باريت اسم محترم في القرية . . والقرويون يثرثرون كثيراً . . أرى بوضوح أنك ورثت كبرياء أبيك . . ألن تحفظي لي كبريائي؟ لا أريد أن تلفق الشائعات حولي بأنني رفضت إيواء ابنة ابني ريتشارد لليلة واحدة . . يعرف الجميع أن لدينا غرفاً إضافية كثيرة هنا.

ـ أتقترح أن أمضي ليلتي هنا؟

ـ وهل هذا أمر مستحيل؟

ردت بمكر: أجل.

قال بمكر مماثل:

ـ ستقومين بأمر لم يفعله والدك أبداً . . فهو لم يكن ليترك للقرية مجالاً للهمس والثرثرة مهما كانت خلافاتنا عنيفة . .

وانقسم تفكيرها في اتجاهين، ذكرى والدها هنا كما كان . . سعيداً متطلقاً، ونادراً ما يجعلها تشعر بإحباطه، إضافة إلى كبريائه الفخور . . فلم ترغب في البقاء دقيقة أخرى تحت هذا السقف العدائي . . ومن ناحية أخرى تساءلت هل كان من الممكن أن يقبل والدها بأن تمضي ليلتها في القرية؟ هل كانت أمها ستقبل بهذا؟

ترددت تميل إلى الرحيل، لكن شيئاً أقوى منها كان يشدها . . فاستسلمت على مضض . .

قالت ببرود: حسن جداً.

لم يظهر على الجد أي سرور لحصوله على موافقتها، مر من أمامها ليفتح الباب متجاهلاً حبل الجرس الذي لاحظته قرب المدفأة، وصاح

بأعلى صوته:

ـ سيدة أوكنر.

يا إلهي! تعجبت مايڤس لهذه النبرة القوية التي يتمتع بها العجوز.

أوصلتها مدبرة المنزل إلى غرفة واسعة وعلى وجهها ابتسامة عريضة لتعرفها إلى حفيدة السيد باريت . .

دخلت مايڤس الغرفة وسرعان ما أحست بالندم لقبول دعوة جدها، لكن الوقت قد فات . . كان بإمكانها أن تجد في القرية من يؤمن لها المنامة لليلة واحدة. إنها واثقة . . لكن لماذا قبل بها ذلك الثعلب العجوز، هذا أمر غامض التفسير . . لقد جاءت إلى هنا تملأها الكراهية نحوه، وأحست بقليل من الإعجاب به بعد لقائها به . . وها هي الآن ودون أي مقاومة تذكر تجلس باستكانة في غرفة نوم غاية في الفخامة، بحمامها الخاص، بعد أن وعدته بالبقاء حتى الغد.

لكن الشيء المؤكد بالنسبة لها هو أنها ستلحق بأول قطار مغادر في الصباح الباكر . . دخلت لتستحم بعد أن أفرغت محتويات حقيبتها مع أنها كانت تدرك أنها سترتدي للعشاء الفستان ذاته الذي خلعته، لأنها لم تحضر غيره . . وتساءلت ما إذا كان لدم نيلسون باريت الذي يجري في عروقها علاقة بموافقتها على البقاء عنده.

خرجت من الحمام الزهري والأبيض اللون مصممة على تصحيح صورتها إذا كانت قد أظهرت شيئاً من الضعف في شخصيتها بالإذعان إلى كلام الرجل السبعيني، ولسوف تظهر له وقت العشاء أنها بقيت هنا رغماً عن إرادتها.

نظرت مايڤس إلى ساعتها لتجد أنها الثامنة إلا خمس دقائق وهو موعد العشاء كما أعلمتها السيدة أوكنر، تفحصت نفسها في المرآة وكانت تبدو منتعشة بعد الحمام، ثم غادرت غرفتها متسائلة عمن سيكون حول مائدة الطعام.

هل سيكون دايف ميرديث المتجهم الوجه هناك؟ وربما زوجته . .

ربما أولاده . . إنه يبدو حيوياً لدرجة تكفي لأن يكون لديه دزينة منهم . . وأدركت أنه إذا انضم إليهم أشخاص آخرون على الطعام، فلربما التقت بعمتها كلودايين وابن عمتها كلارك . .

وصلت إلى أسفل السلم، واتجهت إلى الغرفة الوحيدة التي تعرفها في الأسفل عدا غرفة جلوس جدها . . كانت غرفة الاستقبال مقفلة الباب، الأمر الذي أعطاها إحساساً بعدم انتظار الترحاب بها داخلاً، رغم توقع وصولها إلى العشاء . .

فتحت الباب . . وازداد تعاظم الإحساس بأنها غير مرحب بها حين لم يتحرك أحد من الموجودين .

كانت على وشك أن تلعن الجميع في نفسها وتنسحب فهي لم تكن جائعة على أي حال، حين أبعد جدها نفسه عن الأشخاص الثلاثة الواقف معهم، وتقدم إليها . . ثم قال بوجه غير مبتسم كوجهها :

ـ تعالي لتقابلي أولاد عمتك .

اعتراها الفضول فجأة، لقد كانت على علم بوجود ابن عمتها كلارك . . وبما أنه ما من عداوة بينها وبين عمتها أو أولادها، فقد تقدمت مايفس وكلها اندفاع لأن تكون لطيفة مع أقربائها .

قال الجد :

ـ تعرفين دايف ميرديت طبعاً .

ورمقها دايف بنظرة شك من عينيه السوداوين، فردت عليه بمثلها ثم تجاهلته . . استدارت لتتعرف على قريبيها . . كانت الفتاة النحيلة الشقراء تقاربها سناً، أما الرجل الواقف إلى جانبها، فيبلغ طوله حوالي المتر وخمسة وسبعين سنتمتراً، وشعره بلون القش الأصفر البري .

لكن، وعلى عكسها تماماً، اكتشفت أن ولدي عمتها ليسا مستعدين أبداً لمبادلتها اللطف والتودد .

أجبر كلارك نفسه على مصافحتها وتمكن من تمتمة كلمة «مرحباً» . . لكن كل ما أظهرته ابنة عمتها كاتلين كاعتراف بها، كان التواءة صغيراً من

زاويتي فمها على شكل ابتسامة، وأحست مايفس بأنه لولا وجود جدها لما تلقت منها شيئاً .

اضطربت للقطاطة التي قوبلت بها في الوقت الذي كانت تتحفز فيه لإظهار لطفها، واستدارت كاتلين دون توجيه كلمة لها، ثم تقدمت إلى دايف ووضعت يداً متملكة على ذراعه وكأنها تعلنه حقاً لها ورفعت عينيها الزرقاوين إليه وقالت بتملق :

ـ دايف . . يجب أن تحدثني عن معرض البورسلان الذي ذهبت إليه اليوم مع جدي .

تساءلت مايفس بما أنه ليس هناك سيدة دايف ميرديت ما إذا كانت سيئة الأخلاق كاتلين والعدواني دايف ميرديت مخطوبين، لكن لا وجود لخاتم في إصبع الفتاة .

سمعت دايف يرد :

ـ لا شيء مهم أحدثك به، دميتي .

فهمت مايفس من لهجته أن الفتاة مهما كان شعورها نحوه، لا تمثل بالنسبة له سوى الفتاة الصغيرة التي كبرت في ذات المنزل معه . تحركت عيناه فجأة من كاتلين إلى مايفس، وأضاف :

ـ القطعة التي ظنها نيل حقيقية، تبين أنها زائفة حين تفحصناها عن قرب .

أحست مايفس بخدر في جسدها . .

يا للخنزير القذر! ليس لديها فكرة عما أخبره به جدها حول ما جرى بينهما في غرفة جلوسه الخاصة . لكن بدا دايف وكأنه يقول إنها تحاول خداع العجوز وإنه كشفها .

وجدت مايفس نفسها في موقف حرج . . فإما أن تعود إلى غرفتها تحمل حقيبتها وتخرج لتسير ثلاثة أميال إلى القرية بعيداً عن هذا المنزل البارد، الذي إذا ابتسم أحد فيه يتصاعد صوت طقطقة الوجه المتيبس أو تبقى وتعلن الحرب على الجميع .

دخلت السيدة أوكنر إلى الغرفة، فأزاح دايف يد كاتلين عن ذراعه وأعلن للجميع: "هل لنا أن نذهب إلى العشاء؟" وبهذا اتخذ القرار عن مايفس.. واعتراها غضب مجنون ليس منه فقط بل من الجميع..

ولمحت ابنة عمتها وهي تنظر إلى فستانها الأقل أناقة نظرة تكبر، أما ابن عمتها فلم يبدُ لها كرجل أبداً، إذا كان الحكم على رجولته يستند إلى الهيئة المذعورة التي يبدو فيها أمام جده، هذا العجوز الذي أثبت أنه ثعلب عجوز راوغها لتبقى ليلة في منزله..

قررت أخيراً، مع غليان غضبها وتعاظم كبريائها الذي ورثته عن والدها، أن الوقت قد حان لإعلان الحرب.. فهي الآن غاضبة بما يكفي لحثها على ترك لدى كل واحد منهم شيئاً يتذكره.

قالت بحرارة: تعال جدي.

صدرت منها كلمة جدي للمرة الأولى وأحست بسعادة لتمكنها من تلفظها دون غصة في حلقها.. وأكملت:

- بإمكانك أن ترشدني إلى غرفة الطعام في هذا المنزل المتسع.

دست ذراعها بذراعه وتمسكت بها وهم يخرجون إلى الردهة، دون أن يفوتها ملاحظة أزواج العيون الثلاثة التي تراقب حركتها بعدائية.

أوه.. ليت الغد يصل قبل أوانه لتتمكن من الرحيل عن هذا المكان! ها هي أول ابتسامة حقيقية لها تتلقاها من جدها، وكأنه تذكر في آخر لحظة آداب الضيافة فأمسك لها كرسياً لتجلس عليه حول الطاولة الجميلة.

جلس جدها على رأس الطاولة، وجلس دايف ميرديث على الرأس الآخر.. وبما أنه لم يكن يوجد على العشاء سوى خمسة أشخاص، فقد تركت الطاولة كما هي ولم تمد كلها لأنها ستبدو واسعة جداً، وهكذا جلس الجميع على مسافة قريبة من بعضهم البعض.

وجهت مايفس سهام معركتها فوراً نحو مخيم الأعداء، فخاطبت كاتلين الجالسة قبالتها مع انتهاء السيدة أوكنر من تقديم الطبق الأول.

- أتعيشين هنا مع جدك؟

ظنت للحظات أن ابنة عمتها ستتجاهل سؤالها، ثم لاحظت أن كاتلين التقطت عبوس جدها وأجابت: أجل.

ابتسمت مايفس ابتسامة تمنت أن لا يعرف أحد غيرها أنها زائفة، والتفتت إلى ابن عمتها كلارك الجالس إلى يمينها بأكل وكأن الطعام سيزول من الوجود.. وبما أنه لم يكن ذلك الشخص العدائي كشقيقته، قررت أنه من الأفضل لها التركيز على الفتاة.

- وهل لا زال والداك يعيشان هنا كذلك؟

رد دايف ميرديث عن كاتلين:

- والدا ابنة عمتك مطلقان منذ بضع سنين.

- أنا آسفة.

كان أسفها آلياً.. لكن لوقت قصير، فوالديهما لا زالا حيين. وأكملت:

- يجب أن تعذروني، فهناك الكثير مما لا أعرفه عن عائلتي.

وليس الكثير مما تهتم بأن تعرفه.. وفكرت أن والداها قد يكونان مرّا بأوقات صعبة كثيرة، لكنها لا تذكر يوماً أنهما تناولا الطعام معاً في مثل هذا الجو القاتم مثل أقاربها المساكين.. وبالنظر إليهما أدركت أنها كانت تمتلك شيئاً لم يحصلا عليه أبداً.. الطفولة السعيدة.

خاطبت كاتلين مجدداً حين كانت السيدة أوكنر تزيل الأطباق المتسخة، وتضع أطباقاً نظيفة غيرها.

- والدتك.. عمتي كلود إلين.. هل هي بخير؟

رد جدها بصوت متجهم:

- لقد تزوجت كلود إلين مرة أخرى.. ولا نراها دائماً.

- أتعني أنها استطاعت تحمل أن تترك..

وأشارت بيديها:

- ... كل هذا؟ الحب إحساس قوي جداً.

وقوبل كلامها بصمت مطبق.

بعد لحظة جاءها التحدي من دايف ميرديت:

- وهل تعرفين شيئاً عن هذا الإحساس؟

نظرت عبر الطاولة إليه.. واضح أنه كان يشير إلى أن والدها لم يفكر مرتين بأمر ترك كل شيء استجابة لنداء حبه.. وهذه وخزة أكثر من مؤلمة.

ردت مصممة أن لا تتراجع:

- وأنت؟ هل أنت متزوج دايف؟

ردت كاتلين:

- لا.. ليس متزوجاً.

يا لها من عائلة يجيب فيها الجميع عن بعضهم البعض، إن مايفس واثقة من أنه أكثر من قادر على الرد بنفسه، وأجبرت ابتسامة أخرى لابنة عمتها:

- يجب عليك أن تفعلي ما بوسعك لتوقعيه في شباك.. صديقة، فالرجال يميلون إلى القساوة إذا تركوا عازبين لمدة طويلة.. أليس كذلك؟

ودون أن تتوقف لترى من الذي غص بطعامه ولأجل ماذا، أدارت اهتمامها إلى كلارك الذي لاحظت أنه كان ينظر إليها وكأنه منوّم مغناطيسياً.

- أستطيع القول إنك أنهيت دراستك الجامعية الآن كلارك، فما نوع عملك الذي تعتاش منه؟

يا لشعره هذا..! فكرت وهو ينظر إليها فاقد النطق.. لا شك أن بإمكان أحد أن يصطحبه إلى حلاق محترم، مع كثرة مالهم.. بينما يبدو شعر دايف المتموج مقصوصاً على يد خبير.. وأكملت:

- أنت تعمل بدون شك.. أليس كذلك؟

ارتدت كلماتها إليها:

- وهل تعملين أنت؟

نظرت مايفس مرة أخرى عبر الطاولة.. كانت تظن أنها على استعداد لبتر كل أسئلة دايف ميرديت، لكن ذكر السبب في توقفها عن ممارسة عملها الآن جعلها تتردد.. وردت باختصار:

- ليس في الوقت الحاضر.

انطلق لسان كاتلين، فتكلمت مسبية التصلب لمايفس:

- أي نوع من الأعمال تقومين به..؟

كانت لهجتها متكبرة وتمنت مايفس لو كان لديها الوقت الكافي لتحجمها.

- أعمال سكرتاريا.. في الواقع.

بدت كاتلين محبطة للحظات:

- أوه.. وهل ذهبت إلى كلية السكرتاريا؟

حللت مايفس ابنة عمتها للحظات قليلة.. فقد أعطاها التردد في صوت كاتلين انطباعاً بأن اللؤم الذي فيها ليس جزءاً طبيعياً من شخصيتها.. لكن نظرة سريعة حول المائدة أخبرتها أن الجميع بانتظار ردها.. لا زال جدها غير مبتسم، ويرتاح من تقطيع قطعة السنيك.. كلارك ينظر إليها بذهول مشدوه أعطاها انطباعاً غريباً بأنه نادراً ما يشارك بالحديث وقت الطعام.. أما دايف فهي ليست واثقة كيف كان يبدو، عدا عن أنه لا زال مرتاباً بها ولن يصدق كلمة مما تقوله.

- طبعاً.. أنتم لا تعرفون الكثير عني، وأنا أيضاً لا أعرف الكثير عنكم.

ابتسمت للجميع، ثم اتسعت ابتسامتها باتجاه جدها وأكملت:

- كبداية، لا بد أنكم سترتاحون لمعرفة أنني أعطيت جدي البرهان القاطع عن نسبي.

اتجهت العيون إليه فأكملت:

- ألم أفعل عزيزي؟

بدا جدها جاحظ العينين لسماع أحد يناديه «عزيزي» وبدت كاتلين

وكلارك محملقين لهذا التحبب المفاجيء.. وتمنعت مايفس كثيراً حتى أنها كادت تضحك.

استعاد العجوز رباطة جأشه وقال باختصار:

ـ هذا شأن بيني وبينك ولا دخل لأحد فيه.

تلاشت فجأة رغبتها في الضحك. أصبح واضحاً أنه يخبرها بعدم وجوب أن يعرف أحد بأمر الرسالة التي أعادتها إليه، لكنها كانت ترغب في معارضته إذا أتيحت لها الفرصة فهي تجد أنها ليست على استعداد لمجاراته في هذا.

ساد صمت قصير لدخول السيدة أوكنر حاملة الحلوى، وفي الوقت الذي خرجت فيه كانت مايفس قد أحست بالضجر من اللعبة التي بدأتها.. وكان واضحاً من الطريقة التي راح ينظر فيها ابنا عمتها إليها، أنهما استعادا وعيهما من صدمة سماع تسمية جدهما «بعزيزي» وبانتظار معرفة المزيد عنها.

ـ في الواقع لم أدخل إلى كلية السكرتاريا.. فوالدي المعروف للجميع باسم ريك..

وابتسمت لجدها ابتسامة مصطنعة أخرى، لأنها تعرف أنه لم يستطع أبداً إقناع نفسه بدعوة ابنه بأي اسم آخر غير ريتشارد، وهو اسم متصلب لا يتناسب أبداً مع الرجل الضحوك الذي تذكره، ثم أكملت:

ـ مات وأنا في الرابعة عشرة.. لذا كنا مفلسين تقريباً. تركت المدرسة في السادسة عشرة وحصلت على تعليم السكرتاريا في مدرسة ليلية.

انضم دايف ميريديث إلى الحديث:

ـ لا أعتقد أنك أوقفت أياً من تلك الدروس؟

أعطته أفضل ابتساماتها الزائفة وردت:

ـ غالباً ما كنت أوقفها.

لن تخبره كيف أنها كانت مضطرة إلى ذلك حين اشتداد مرض أمها،

ونتيجة لهذا كان عليها أن تنكب على الدروس بجنون لتلحق بالبرنامج.

بالطبع. لاحظ ابتسامتها الزائفة لكن ردها أرضاه على ما يبدو.. أوه.. يلزمها وقت لتتعرف إلى طبيعة جدها ثم تبدأ بالتركيز على دايف هذا عدا عن ابني عمتها.

أخيراً خرج كلارك من ذهوله، وقرر المشاركة في الحديث:

ـ أين.. كنت تعيشين؟

ـ في لندن، وليس دائماً في مكان واحد.

سألت ابنة عمتها:

ـ كنت تتنقلين كثيراً؟

ـ هذا صحيح.

لكنها لم تلق بنظرة ابنة عمتها ولم تتدهش أبداً حين وجهت إليها وخزة خبيثة:

ـ سمعت بأناس يفعلون هذا..

توقعت مايفس أن يكون لقصدها علاقة بالعجز، لكنها أجفلت حين أكملت الفتاة:

ـ أليس هذا ما يسمى بكسب الرزق بطرق ملتوية؟

نظرت مايفس إلى الملعقة الأخيرة المتبقية من الحلوى أمامها.. وكان السكون قد عم الغرفة مع عدم تقديم أحد لأي تعليق.. لكن مايفس تعرف تماماً أنها قادرة على التعامل مع ابنة عمتها دون مساعدة.

وضعت الملعقة المليئة بالحلوى في فمها بكل هدوء ثم أعادتها بلباقة.. ودون استعجال، وقفت على قدميها ونظرت بلطف إلى الفتاة الزرقاء العينين، وإلى رأسها الفارغ الجميل المنعجرف الأشقر.. وقالت بنعومة:

ـ ابنة عمتي العزيزة.. إذا كان الله قد وهب أي مخلوقة أنثى من نسل جدي الفطنة والذكاء، أفلا تعتقدين أنه من الواجب عليها أن تستخدمها؟

لم تزعج نفسها بتمني ليلة سعيدة لهم.. وكانت تعي وهي تتهادى

بتكبر لتخرج من غرفة الطعام أن كرسيين على الأقل تحركا إلى الخلف. وكأن واحداً أو اثنين من الرجال الثلاثة قد تحرك ليقف احتراماً لخروجها.. لكن لم يكن لديها فكرة عمن استحسن كلامها وأطلق ضحكة عالية قصيرة لطمتها الوداعية.. ولا تظن أنها تهتم بمعرفة من فعل ذلك.

* * *

٣ ـ سأدفع لك!

كانت أفكار مايفس حين نهضت من السرير في الصباح التالي متنوعة.. فكرت بوالدها الدائم الضحك، وبقدرته على الحفاظ على مرحه حتى في أصعب المواقف، مع ذلك وحين فكرت بذلك الوقت الذي أمضته في غرفة الطعام مع أقاربها الرهيبين وجدها الدائم السخط ودايف ميرديت الكريه، لم تستطع إلا أن تتساءل ما إذا عانى مرح أبيها الذي لا يكبح، ما عانته هي.

لقد سمعت صوت ضحكة ليلة أمس.. وهي تذكرها جيداً وتعتقد أن تلك الضحكة التي أعقبت تلميحها بأن ابنة عمتها لا عقل لها قد صدرت عن دايف ميرديت.. لكن لماذا يضحك؟ لا تعرف. دخلت لتستحم وهي لا تزال تحاول معرفة سبب ضحكته، ثم ارتدت الجينز والقميص.. وكما الليلة السابقة، احتارت للصمت البارد في هذا المنزل الكئيب.

تقدمت مفكرة نحو نافذة غرفتها: أمن الممكن أنها ودون قصد قد أثارت تسليته المرحة؟.. ونظلعت إلى الخارج نحو المنظر الرائع الممتد على مدى فدادين من الحقول والمراعي..

اقتنعت بعد بضع دقائق أن سبب ضحكته هو التسلية وقررت أن تنسى أمر دايف ميرديت.. الوقت لا زال مبكراً، لكن لديها بعض الاستفسارات حول القطار العائد إلى لندن.. فغادرت غرفتها وهي تفكر أن الأفضل لها البحث عن أي أثر للحياة في المنزل.

نزلت السلم ثم توقفت عند أسفله، ونظرت عيناها بإعجاب إلى فازة

موضوعة فوق خزانة منخفضة في الردهة، وراودتها فكرة أن والدها وقبل مغادرته للمنزل لم يفكر بحقه في هذه الأشياء الجميلة.

كانت ابتسامة على وشك أن تجتاح وجهها وهي تفكر بوالدها وحبه لأمها، لكن تلك الابتسامة لم تكتمل، فجأة توقفت مسمّرة مع فكرة أخرى لامستها.. وعرفت على الفور لماذا كان الجميع «معادياً» لها ليلة أمس.. عرفت الرد على سبب ضحك دايف ميرديت، ودون أن يتوقع أحد هذا.

كانت مذهولة لعدم تفكيرها بهذا قبل الآن، لقد اكتشفت سبب عداوة الثلاثة لها! لقد ظنوا لعدم معرفتهم بوعدها لأمها، أن السبب الوحيد لوجودها هنا، هو أن تغتنم أي فرصة لطلب شيء من الإرث!

ـ صباح الخير آنسة باريت.

خرجت مايفس من أفكارها المذهولة لترى أن السيدة أوكنر ظهرت أمامها دون أن تلاحظها.

ـ أوه.. صباح الخير سيدة أوكنر.

ـ إذا كنت تبحثين عن غرفة القطور فهي من هنا.

كانت غرفة الفطور فارغة، لكن مع وجود السيدة أوكنر لتهتم بها، جلست على الكرسي الخامس حول الطاولة، واضطرت إلى إبعاد الأفكار التي حاولت الاختراق مجدداً، رافضة أي شيء آخر سوى التوست، ومع مغادرة مديرة المنزل عادت لمحاولة ترتيب أفكارها.

لكن هذه الأفكار المتصارعة عادت إلى الانحسار مجدداً، حين جالت عيناها في الغرفة الجميلة واستقرتا على خزانة محفورة جميلة. ثم التقطت حركة خارج الأبواب الزجاجية.. ورأت جدها يقف هناك متأملاً جمال مدينة الورود.

إذن فهو معتاد على الاستيقاظ باكراً! وتمنت أن يبقى حيث هو لفترة قصيرة، فهي ليست بمزاج تتحمل معه أي طبع نكدٍ هذا الصباح.. ولديها أفكار طارئة تبحث فيها.

أصبح كل شيء واضحاً الآن.. ولم تفهم لماذا تأخرت في فهم

الأمور.. مع أن الأمر ليس عجيباً على أي حال، وبالرغم من عدم وجود مال لديها إلا أن التفكير بكسب المال دون اضطرار للعمل لم يخطر ببالها أبداً.

لكنها أجبرت نفسها على التفكير بهذا وهي تحاول رؤية الأمر بمنظار ابني عمتها.. إنهما يظنان أنها جاءت إلى هنا للمطالبة بحصة ثالثة أو ربما مناصفة، لأن والدها يحق له بنصف أملاك جدها؟

لكن لا أحد منهم يعرف أنها لن تلمس بنساً واحداً من مال جدها، وإذا كان المال يسبب ما رأته ليلة أمس فشكراً لله لأن لا مال لديها.

أصبح لضحكة دايف ميرديت معنى الآن.. ليس الأمر أنها أثارت تسليته فجأة بتعليقها، بل لأنه أخذ تعليقها دليلاً على أنها جاءت لتتذاكى عليهم إذا استطاعت، ولتأخذ حصتها مما كان يجب أن يعود لوالدها من الإرث.

أخذ الغضب ينهشها.. أوه.. ألن تحب أن تبقى وتعبر لهم لبضع لحظات عن دناءة تفكيرهم؟ توقفت أفكارها مع فتح الباب ودخول السيدة أوكنر مع إبريق قهوة يتبعها دايف ميرديت الذي فتح الباب لها.

لزمها بضع لحظات لتتمكن من السيطرة على تصاعد الكراهية في قلبها نحوه ونحو دماغه المرتاب، بينما خرجت السيدة أوكنر قائلة إنها ستحضر له البيض واللحم كما هو معتاد على تناوله في الصباح.. لن يعرف أبداً ما عانته لتقول بعفوية وهي تمد يدها إلى إبريق القهوة.

ـ صباح الخير.. دايف.. قهوتك سوداء أم مع الحليب؟

فهمت من رده المتجهم «سوداء» أنه إما لا يشعر برغبة في الضحك هذا الصباح، أو أن من غير المعتاد وجود شخص مرح في هذا البيت.

كانت معتادة على حب القهوة والقيام بكل الأعمال المنزلية، صبت كوب القهوة له ثم قربت وعاء السكر إلى جانبه تعلق بلباقة:

ـ أتظن أن المهضم الفوار ينفع؟ لقد سمعت أن له قيمة كبرى حين يشعر المرء بالاكتئاب.

قطب بشدة، وحسبت أن الرعد قادم: يبدو أن روحه السوداء لا تحتمل وجود شخص مرح مشرق مثلها على طاولة الفطور معه.. وسألها:

- كم ستبقين هنا؟

قاومت اندفاعها كي تقول له «الشهر كامل» لمجرد أن ترى ردة فعله، فقد أنبأتها النظرة التي في عينيه أن هذا لن يدهشه أبداً، فهو يعتقد أنه يعرف جيداً سبب وجودها هنا، ففقدت الاندفاع وتلاشى قليل من سيطرتها على نفسها. ثم قالت بحرارة:

- بإمكان الجميع هنا البقاء والتمتع بهذا البؤس.. أما أنا فسألحق بأول قطار ذاهب إلى لندن هذا الصباح.

نظر مباشرة إليها وهو يتشدق ببطء:

- ماذا..؟ بهذه السرعة؟ أنت بالتأكيد لن ترحلي قبل أن تحصلي على ما جئت لأجله؟

- ما جئت لأجله..؟

عانت للحظة ارتباكاً قبل أن تفهم ما يعنيه، ثم أحست بصدمة صغيرة من أنه لا يخفي شيئاً بل يُظهره علناً.. وخلعت في تلك اللحظات قفازها التاعم.

- أوه.. أتعني ذلك الجزء من الميراث الذي يظن قريباي العزيزان أنني هنا لأطالب به؟ أليست هذه فكرة جيدة؟

رد دايف ونبرة سخرية في صوته:

- إنها ليست كما أخشى فكرة جيدة جداً.

رفعت مايفس رأسها قليلاً إلى جانب واحد، وحدجته بنظرة متسائلة.. لكنها كانت ساخرة أكثر منه وهي تخبره بالشيء الوحيد الذي اعتقدت أنه يعنيه:

- وهل تقول لي إنه أوصى بكل شيء لملجأ الكلاب والقطط الشاردة؟ لن يفعل هذا.. أليس كذلك؟

تلفظت بجملتها الأخيرة بألم مزيف.

وضع مرفقه على الطاولة وراح يحك ذقنه؛ بدا دايف ميرديث وكأنه حصل على كل الردود وهو يفكر بسؤالها.. ثم قال بابتسامة زائفة:

- كان من الممكن أن يفعل.. لو أن لديه ما يتركه.

اتسعت عيناها غضباً، وبدا عدم التصديق في لهجتها.

- أتريد القول أن مؤسسة ميرديت وباريت أصبحت مفلسة؟

- لا.. فالمؤسسة تزدهر كثيراً.

- إذن لماذا..؟

قاطعها بسخرية:

- المشكلة بالنسبة لك أن جدك لم يعد يملك حصة فيها.

- وهل تقول..

- أقول إن جدك باع حصته لي.

- لك..

هذا غير معقول.. من المستحيل أن يفرط جدها بحقه في جزء من المؤسسة.. أيمكن؟

ارتد نظرها إلى ما وراء دايف حيث يقف جدها يعتني بالورود، ثم تذكرت لماذا لم يرغب ابنه، والدها، في البقاء في المؤسسة. وتذكرت أنه حرمه الميراث بسبب زواجه من أمها، وبكل تأكيد فإنه لن يتوانى عن بيع حصته إذا ناسبه هذا.. إنه رجل قاسي القلب ويظهر ذلك بوضوح في تلك الرسالة الفظيعة التي أرسلها لأمها.. حتى ولو اعتذر عن هذا بالقول إنه كان حزيناً متكدراً.

عادت لتنظر إلى الرجل الجالس قبالتها.. وأدركت أنه كان يراقبها ويقرأ كل أفكارها.. رجل أدركت فجأة أنه أشد قسوة من جدها إذا ناسبه هذا.

سألها ساخراً: هل فهمت؟

قالت تقرر أمراً واقعاً:

ـ أنت تملك مؤسسة ميرديت وباريت.

ـ وهل ستحاولين بعد الآن الادعاء بأنك لا تعرفين؟

سألت:

ـ تعني عن استيلائك على المؤسسة؟

ـ لم تضيعي الوقت لتأتي إلى هنا.. أليس كذلك؟

وجدت نفسها عاجزة عن فهم قصده.

ـ لست أفهم.

ولم ترَ السخرية على وجهه بل العدوانية الصرفة:

ـ بكل تأكيد فهمت.. لقد تصدرت أخبار استلاكي لكافة الحصص في الشركة الصفحات الأولى في جميع الصحف يوم الجمعة.

تصاعدت عدائيتها للهجته.. لكنها أدركت أنها وصلت بعد يوم واحد من ظهور الخبر في الصحف، ولن يبدو لأمثاله مجرد صدفة أن يقبض جدها مبلغاً طائلاً في يوم وتظهر هي من حيث لا يدري في اليوم التالي.

قالت:

ـ أعذر جهلي.. لكن لو أن جدي باع حصته في مؤسسة ضخمة مثل ميرديت وباريت فهل من البلاهة أن أتصور خروجه من الاتفاق بشكل مرضي جداً؟

ـ قد يبدو الأمر هكذا.. لكن لسوء حظك.. ما لم تقله الصحافة، لأنها لا تعرفه، أن مسألة المال تمت منذ سنوات عديدة، حين احتاج جدك للمال من أجل تسوية بعض الديون.. وهكذا فإن عملية الانتقال يوم الجمعة كانت على الورق فقط.

صمتت مايقس للحظات طويلة.. وراحت تفكر، لا شك أن رسالة أمها وصلت إلى جدها في الوقت الذي كان فيه على شفير الإفلاس. ألا يمكن أن تكون كبرياء باريت هي التي دفعته إلى الكتابة بأنه لن يساعدها لأنه في الأصل لم يعد يملك شيئاً.. ولأنه كان يحتاج في ذلك الوقت إلى كل بنس يستطيع جمعه؟

أدركت فجأة أنها تحاول إيجاد الأعذار لتلك الرسالة.. أيمدت أفكارها ورفعت رأسها لتجد أن دايف يراقبها بعيني صقر.. وكأنه يعتقد أنه أفشل خططها بالقول إن جدها لا يملك مالاً.

قالت ببطء:

ـ إذن.. جدي ليس الرجل الذي ظننته؟

ـ وهل اختطف هذا أنفاسك؟

أعاد تصرفه الواثق كبرياء باريت إلى الصدارة، فراحت تعد بصمت حتى العشرة.. ثم بدأت تتفرس بالوجه القوي الذي أمامها وقالت:

ـ من الواضح عزيزي دايف أنني كنت أسعى وراء الرجل الخطأ.

كان رده فورياً وغاضباً، ولم تكن تتوقع غير هذا. وقال ساخراً:

ـ لا تحاولي حتى.. ربما نجحت سابقاً مع رجال غيري، لكن لا تحاولي هذا معي.

وبدا شريراً إلى درجة أن يده اشتدت على الطاولة في قبضة قاسية، وهجرها كبرياؤها للحظات وأحست بالخوف وهو يتابع تهديده:

ـ ما من امرأة خضراء العينين وتفوح رائحة المال في أنفها ستتمكن مني!

لحسن الحظ، وفي تلك اللحظة، سمعت مايقس صوت السيدة أوكنر عند الباب، وبما أنها الأقرب إليه فقد وقفت بسرعة لتفتحه لها. وعادت رباطة الجأش إلى الفتاة بينما كانت السيدة أوكنر تقف حاجزاً بينها وبينه، وتقوم بتحضير البيض واللحم في طبق وتضعه أمامه.

دخل جدها من باب الشرفة وتمتم بصوت أجش إلى السيدة أوكنر بما معناه أنه يريد فطوره، ثم أخذ مكانه حول الطاولة، لكنه لم يكلمها أو ينظر إليها وكذلك الأمر مع دايف.. وفكرت مرة أخرى: كلاهما من الطينة نفسها، فدايف لم يلق عليها تحية الصباح كذلك.

ورغم ذلك لم تستطع كبح تحيتها المرحة:

ـ صباح الخير جدي.

لم تكن نظرة نيلسون باريت المتعجبة التي تلقتها جيدة أبداً، فتابعت:

ـ أجل.. شكراً لك جدي.. لقد نمت جيداً.

والتقت أعينهما.. لا شيء سوى البراءة في العينين الخضراوين وهي تحدق في الوجه المتجهم لجدها. شعرت في تلك اللحظة أن أحداً من حفيديه لم يقف في وجهه مرة طوال حياته.

قال بصوت أجش:

ـ خففي من وقاحتك أيتها الشابة.

لكنها تابعت النظر إليه، ولم تفتها حركة صغيرة عند زاويتي فمه، لم تكن التواء امتعاض فهل يمكن أن تكون قد أثارت روحه المرحة؟

ردت بإذعان زائف، وتحولت تسليتها إلى إحساس حقيقي بالمرح:

ـ حاضر جدي.. لن تضطر إلى تحملي وتحمل وقاحتي لوقت طويل.

التفت ناحيتها فوقع المنديل على حجره، ونظر إليها عابساً.. فتابعت بمرح متزايد:

ـ ما إن أقبلك مودعة، حتى أنطلق في طريقي.

تلاشت الشيطنة مع ازدياد عبوسه.. وأحست بمشاعر غريبة سببتها نظرته الجديدة إليها، وفكرت بأن سنوات طويلة مرت لم يقبله أحد فيها.. لكن أكثر ما صدمها كان إحساساً بالأسف نحوه، في وقت لا تريد أن تشعر بأي شفقة عليه.. لقد صنع فراشه بيده، وليتحمل عبء النوم فيه.

سأل:

ـ إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟

دهشت لسؤاله، فهي تعرف أنه حاد الذهن ولا يعقل أن يكون قد نسي أنها عائدة إلى لندن اليوم.. وقالت بخفة:

ـ كما قلت لدايف لتوي، سأوي الليلة إلى فراشي الخاص.

صاح:

ـ وهل سترحلين؟

بدا مستغرباً، مع أنه يعرف جيداً أن ليلة واحدة تحت سقف بيته كانت بالنسبة لها أكثر من كافية.

أجابت، وأحاسيسها متوترة للنظرة التي تبادلها مع دايف.. هل كانت نظرة اعتداد بالنفس؟

ـ سأسافر بأول قطار يخرج من هنا.

بعد أن أبلغته ما كانت متأكدة أنه يعرفه، صبت له فنجان قهوة ولنفسها فنجاناً آخر.. ثم قامت بصب القهوة لدايف حين لاحظت فنجانه الفارغ..

أحست بتغيير في الأجواء فارتشفت القليل من قهوتها ثم أعادت الفنجان بحذر إلى صحنه، ونظرت إلى دايف عبر الطاولة.. ولمحت تعبير وجهه الهادىء فلم تستطع أن تكتشف شيئاً.. ثم أشاحت بعينيها عنه بسرعة إلى جدها.. هناك شيء ما يجري بين الرجلين.. تدرك هذا وتشعر به.

بدأت تقول بصوت حاد: ماذا...

قاطعها جدها بنظرة لطيفة:

ـ إذا كنت تنوين العودة إلى لندن اليوم، فأظن من واجبي أن أحذرك لأنك ستنتظرين طويلاً وصول القطار. ربما نسي دايف أن يخبرك عن عدم خروج القطارات من فيرني دروفيلد أيام الآحاد.

كانت تدرك تماماً أن دايف لم يخبرها بأن القطارات لا تتحرك يوم الأحد، وأنه لم يحذرها لأنه واثق من أنها لا تنوي السفر بأي حال.. وقفت فجأة ونظرت إليهما نظرة قاتلة، ثم رمت منديل الطعام بغضب شديد فوق المائدة، ودون كلمة أخرى خرجت من الغرفة.

لاحقاً برد غضبها قليلاً، لكن كراهية كل من في «روزيكرز» بقيت في قلبها، ما عدا السيدة أوكنر.. وكانت ممتنة للتوست الذي تناولته مع القهوة أثناء الفطور، فهي لم ترجع إلى المنزل في وقت الغداء بعد أن خرجت منه غاضبة عند الصباح..

عليها أن تعود إلى «روزبكرز» وتعرف هذا.. كما تعرف تماماً أن عليها قضاء ليلة أخرى تحت سقف جدها. مع أنها كانت غاضبة ساعة تركت المنزل، ومندفعة لأن تتجه نزولاً إلى القرية لمحاولة إيجاد مكان للنوم هناك.

فكرت بتمرد: هذا ابتزاز عاطفي! إنها الخامسة الآن، ولقد مرت ساعات عديدة وهي تسير على غير هدى في الأراضي الجميلة المناظر والتلال والوديان التي لا شك يعرفها والدها . مع ذلك كيف يمكن أن تكون مضطرة للبقاء هنا تحت ضغط ابتزاز عاطفي ليلة أخرى؟ هذا الابتزاز الذي يعني أنها تشعر بنوع ما من العاطفة نحو ذلك الرجل الساخر.. وهذا أمر بعيد جداً عن الحقيقة.

لم تلتق أحداً في الردهة وهي تدخل المنزل، رغم أن السيارتين المتوقفتين خارجاً تشيران إلى وجود أشخاص في الداخل. صعدت مباشرة إلى غرفتها تفكر مرة أخرى لو تطلب من أي شخص في المنزل إيصالها إلى محطة لسكة حديدية تعمل فيها القطارات يوم الأحد.

ولمعرفتها بهذه الجماعة أدركت أنهم سيرفضون مساعدتها.. ودخلت غرفتها ورمت بنفسها على السرير حيث تنوي البقاء حتى موعد العشاء.. إنها سعيدة لأنها لم تذل نفسها وتطلب منّة من أحد.

كان الجميع موجودين عندما دقعت الباب إلى غرفة الاستقبال، وأحست بكل العيون تلتفت إليها لكنها لم تلاحظ سوى كاتلين بوجه خاص وفستانها المذهل الذي جعلها تحس أكثر فأكثر بتجاعيد فستانها هي.

قال دايف:

ـ نحن على وشك الدخول لتناول العشاء، لكن هل تشربين شيئاً أولاً؟

بدا لها لوهلة دمث الأخلاق إذ فصل نفسه عن المجموعة، وكان لحركته وهو الوحيد بين الأربعة الذي يعترف بوجودها بريق المعركة في

عيني مايفس.. فقد كان كلارك مشغولاً بتفحص حذائه وكاتلين تتحدث إلى جدها.

ردت مايفس بسرعة:

ـ لا شكراً. لن أمنح أياً منكم فرصة للبدء بالتملق.

تعلقت كاتلين بذراع جدها وهم يتجهون إلى غرفة الطعام وكأنها كانت تقول بهذا «إنه جدي». ابتسمت مايفس وتركتها تفعل ما تشاء، فلقد كفاها حتى الآن ما لاقته من أسرة باريت، إضافة إلى ذلك الفرد من ميرديت. لقد كان السبب الوحيد الذي جعلها تنزل إلى العشاء بسيطاً جداً: إنها تتضور جوعاً.

شغلها جوعها الشديد عن مهاجمة أياً منهم هذه الليلة، فألهت نفسها بالطعام تاركة الكلام للآخرين.

بهذه الطريقة، عرفت أن كاتلين معروفة بينهم باسم كاتي، وأن كلارك الذي لم تعتد مايفس بعد على شعره المشعث، يسمى ريك.. وجعلتها الفكرة تبتسم: إذن لا أحد يطيل اسم دايف إلى دايفد.

كانت تتساءل بتكاسل إن كان دايف اسمه الأصلي، حين لاحظت من الطرف الآخر للمائدة أنه لم يكن يراقبها فحسب بل يخاطبها:

ـ كنت تبتسمين منذ لحظات مايفس.. هل كنت تفكرين بأشياء مرحة؟

لا بد من وجود سهم مخبأ في كلماته، وأحست بالقلق فقالت كاذبة:

ـ كنت أفكر بالساعات الجميلة التي أمضيتها اليوم.

وامتنعت عن قول «في الخارج» فدايف ليس غبياً ويدرك قصدها تماماً.

ـ وهل كنت تجوبين التلال؟

نظرت إليه بارتياب ثم قررت أن تأخذ كلامه كما هو. ردت بلطف:

ـ المناظر جميلة جداً.. حقاً.. أليست كذلك؟ و«روزبكرز» تبدو واسعة من بعيد.

لم تقاوم شيطنتها حين نظرت حولها لتجد العيون مسلطة عليها، فأضافت:

- حتى من بعيد جداً يبدو المنزل كبيراً.. ولا بد أنه يساوي ثروة!

وجدت من المثير للاهتمام، مراقبة الجديد في عيني دايف. لقد وصله قصدها، فبالرغم من عدم وجود مال حقيقي لجدها، فهناك الأرض والمنزل، وبعد موته ستباع هذه الممتلكات. ومع الأخذ بعين الاعتبار حصة دايف التي ستؤول إليه من والده والتي تبلغ النصف، فسيبقى هناك مبلغ محترم تتقاسمه مع ابني عمتها.

تلا قولها صمت متحجر.. وبدا دايف وكأنه يمنع نفسه عن ردٍ عنيف.. وأدركت فجأة أنه منذ اللقاء الأول بينهما كان مؤدباً معها أمام الآخرين.

وأكملت:

- من المؤسف أنني سأرحل صباح الغد.

سألت كاتلين مع أول نظرة رضى نحوها:

- هل ستعودين إلى لندن غداً؟

كان تلهف ابنة عمتها لرحيلها يفوق تلهفها فأجابت

- أود أن أغادر في أسرع وقت ممكن.

قالت كاتلين:

- هناك قطار في الثامنة.. وأنا مستعدة لإيصالك إلى المحطة لو شئت.

قال نيلسون باريت:

- لم أعهدك تستيقظين بوداً قبل التاسعة.

ورمى منديل الطعام فوق صحنه بتوتر.

قالت مايفس غير قادرة على تجنب التعليق اللاذع بعد أن بدا لها أن ابنة عمتها مستعدة لعدم النوم إطلاقاً إن كان هذا يفيد في التخلص منها في أسرع وقت ممكن.

- أنا واثقة أن كاتلين ستضحي بنومها لأجلي، ألن تفعلي ابنة عمتي؟

وجدت مايفس نفسها، ولدهشتها، تندم على قولها.. فقد تحول وجه كاتلين إلى أحمر قانٍ. ورأت أنها بالرغم من فراغ رأسها فهي حساسة أكثر مما تصورت!

تلاشى اندفاعها للاعتذار على الفور لتذكرها الطريقة المتكبرة التي نظرت فيها كاتلين إليها وإلى فستانها بالأمس.

قالت دون توجيه الكلام لأحد:

- أنا ذاهبة للنوم.

دون توقع رد، وكما حدث ليلة أمس، سمعت صوت تحرك كرسيين وهي تغادر الغرفة. ولم يكن واضحاً ما قيل بينهم بعد ذلك لكنها سمعت جدها يصيح في وجه كلارك: «لأجل الله افعل شيئاً لشعرك!».

كانت أذناها لا تزالان تضجان من صيحة جدها حين دخلت غرفتها، وتساءلت كيف حال أذني كلارك، بما أنه كان قريباً جداً من جده، وقالت في نفسها.. يا لها من عائلة!

بعد نصف ساعة، كانت توضب حقيبتها بعد أن استحممت وارتدت قميص نومها القطني، وفكرت بأن ترتدي الجينز لرحلة العودة إلى منزلها في الصباح، حين انفتح الباب، وأمام دهشتها دخل الرجل الجامد العينين الذي رأته آخر مرة في غرفة الطعام، إلى غرفتها.

وقفت مايفس تنظر إليه بذهول للحظات.. وكانت الطريقة التي ينظر فيها دايف ميرديت إليها هي التي أيقظتها من ذهولها ودفعتها لارتداء روبها بسرعة.

قالت بسخرية لاذعة:

- لو بكرت خمس دقائق لضبطتني دون هذا الثوب. أتمنى في المرة القادمة أن تخدش أصابعك بالخشب قبل أن تدخل.

سألها:

- توضبين حقيبتك؟

www.rewity.com

ـ فائق الذكاء! أنا لا أقبض أجراً للبقاء في هذا القبر.

وقبل أن تسأله عما يريد، شغل تفكيرها بتذكيرها:

ـ لقد قلت إنك كنت دائماً مفلسة. ألا زلت تعانين من الضغط؟

ـ وهل هذه جريمة؟

تابع سؤاله:

ـ كما قلت أيضاً إن ليس لديك عمل في الوقت الحاضر.

لم تستطع فهم شيء مما يفكر به. لكن وبما أنه لن يصدقها على أي حال، لم تجد سبباً يدعوها لعدم قول الحقيقة:

ـ وهل تصدق لو قلت لك إنني تخليت عن عملي لأهتم بأمي المريضة؟

لم يصدق وهذا أمر اعتادته منه، مع ذلك، حين اغرورقت عيناها بالدموع لمجرد تذكرها عدم وجود أمها في الشقة في لندن، ذكر دايف سبب دخوله عليها دون سبب قرع الباب. وجاء دورها كي لا تصدق.. وقالت بضعف:

ـ أتسمح أن تكرر ما قلت؟

ـ لقد ذكرتك بأنك قلت لتوك إنك لا تتلقين أجراً للبقاء هنا.. وهذا ما سأفعله بالضبط.. سأدفع لك لتبقي.

* * *

٤ ـ ألف سبب.. للبقاء

ـ سوف.. تدفع.. لي؟

لم تصدق مايڤس أنه قال هذا. يبدو أن دايف ميرديث لم يصدق أبداً أنها تنوي الرحيل.. وردت بخشونة مرتابة به بقدر ارتيابه بها.

ـ هات السبب الآخر.

رد بنفاد صبر: أنا جاد.

وبدا جاداً بالفعل، وهذا ما أوقعها في حيرة، يجب أن تعترف أنها كانت أكثر من متشوقة لمعرفة السبب، إذا كان حقاً جاداً كما يبدو ولا يحاول خداعها لدافع خفي.

وجدت أن الوقت قد حان لكي تقوم ببعض ألاعيبها المسلية.. فسألت بهدوء محاولة إخفاء مشاعرها الخشنة بابتسامة زائفة:

ـ هل أنت مستعد لتدفع لي كي أبقى؟

تناقضت نظرتها المتسعة العينين مع اشتداد فمه في خط مستقيم، وهو يرى البراءة المزيفة في ابتسامتها.. وقال بخشونة:

ـ لقد قلت لك هذا لتوي.

لم تسمح مايڤس لنفسها بأن تغضب لقساوة لهجته.. مع أن عيناها لمعتا لحظة قبل أن تسيطر على نفسها، وقالت تشير إلى المقعد:

ـ تفضل اجلس.

وتوجهت لتجلس فوق السرير مكملة لعبتها:

ـ يبدو لي هذا مثيراً للاهتمام.

تجاهل عرضها واتجه نحو النافذة ليقف وظهره لها، كانت ضربات أصابعه على ما يبدو طريقته في العد إلى العشرة.

كانت بدورها قد وصلت إلى العشرة في عدها الصامت حين توقفت أصابعه واستدار ينظر إليها بحدة. اتجهت عيناه إلى شعرها المسرّح الذهبي اللون، إلى عينيها، ثم إلى فمها. ثم قال:

ـ لقد أدخل مجيئك إلى هنا البهجة إلى قلب جدك بشكل هائل.

ردت دون تصديق:

ـ البهجة!؟ أتعني ذات الرجل النكد الطباع الذي يخطر ببالي الآن؟

ـ أجل.. فأنت لا تعرفينه كما أعرفه أنا.

نسيت للحظة نيتها في المراوغة:

ـ ولا أريد أن أعرفه.

ـ إذن تعترفين أنك لم تأتي إلى هنا إلا بسبب ما قرأته في الصحف يوم الجمعة؟

يا إلهي.. كم هو سريع في تخميناته.. صاحت:

ـ أنا لا أعترف بشيء!

ابتلعت غيظها بصعوبة ساعية إلى الهدوء.. وقالت بحلاوة:

ـ كنت تقول إن وجودي هنا أبهج ذلك الرجل العجوز. فهل أفترض أنك تعرض الدفع لي كي أمكث هنا لأبقيه سعيداً مبتهجاً؟

فهمت من الطريقة التي دس فيها يديه في جيبيه أنه يجد صعوبة في السيطرة على أعصابه.. وقال:

ـ لقد راقبته منذ جئت إلى هنا.. ورأيت الطريقة التي أعجب بها بروحك القتالية.

تمتمت وقد فاتها ملاحظة هذا في جدها:

ـ وهل كنت تراقبه؟

ـ لا يفوتني ملاحظة شيء.. لقد رأيته يراقب ردات فعلك، وكيف لاحظ رفضك التنازل أمام أي منا.

سألت بسرعة:

ـ وهل تضع نفسك في صف واحد معه ومع ولدي عمتي المتعجرفين؟

قال ببرود:

ـ ليس لدي وقت للعجرفة.. لقد أثار اهتمامي منذ مدة أن نيلسون لم يعد لديه.. ذات الحماسة للحياة كما كان سابقاً.

أزعجها كثيراً شعور القلق الذي راودها لإمكانية مرض جدها، فما دخلها هي.. وأدارت ظهرها لهذا الإحساس المفاجيء.. لتقول بصوت قصدت أن يكون قاسياً:

ـ إنه يتقدم في السن.

ـ هو في التاسعة والستين.. لكن حسب ظني لا يمكن لحالته أن تكون لسبب طبيعي كالتقدم في السن.. كان فيما مضى يزأر في المكان وكأنه قائد الجيش.

ولأنها سمعت زئيره مرتين، فكرت مايقس أنه لم يتغير كثيراً في هذا.. وأضاف دايف:

ـ لكن منذ وصولك عدت لأسمعه يرفع صوته.

ـ واكتشفت أن هذا ما فاتك.. فأحببت أن تعود لسماع زئير الشيطان العجوز! إذن هذا ما تريد مني البقاء لأجله؟ أنت تحبه جداً.

رد لها ما قالته له منذ قليل:

ـ وهل هذه جريمة؟ لقد عرفته طوال حياتي.. كان كأب لي بعد وفاة والدي.

وجدت نفسها تتساءل عن عمر دايف حين مات والده.. وتذكرت ضعفها في ذلك الوقت.. ثم تساءلت إن كان فقده في عمر يتعرض فيه للمخاطر.

قالت بخفة:

ـ هذا ما يجعلنا تقريباً قريبين. ماذا أقول دايف: هل يجعلنا هذا ابني عم على مستوى معانقة بعضنا؟

قطب حاجبيه وتشكلت سحب سوداء على وجهه . أوه.. يا إلهي . فكرت: مايقس باريت هي آخر شخص في العالم يفكر دايف ميرديت في معانقته.

قال:

- إذا كنت تحاولين مغازلتي.. فلا تفعلي لقد حصنت نفسي من أمثالك منذ زمن بعيد.

- يا للأسف!

ثم جاهدت لتكون جادة وسألت:

- هذا العمل المدفوع، كم سيدوم وقته؟

رد دون كثير من التفكير:

- لنقل ثلاثة أشهر.

- ثلاثة أشهر؟

بدر السؤال المذهول منها دون تفكير، فقد أرعبتها فكرة قضاء ثلاثة أشهر في «روزيكرز» وهي تفضل ألف مرة أن تقضيها في السجن.. لكنها استجمعت شتات نفسها بسرعة، وأعطته انطباعاً بأنها تفكر بالأمر في وقت كانت لا تزال مصممة على السفر في ذلك القطار في الثامنة من صباح الغد.

قالت ببطء شديد:

- هذا يكلفك غالياً.

- قلت إنني سأدفع.. إذا وافقت على البقاء ثلاثة أشهر.. ثم في نهاية المدة سأحرر لك شيكاً بألف جنيه استرليني.

إنه جاد فعلاً كما قال.. خاصة وأنهما أخذا يبحثان التفاصيل حول المبلغ الذي سيدفع بالمقابل! ألف جنيه مع المنامة والمأكل.. عليها أن تعترف أن هذا أمر ليس بالسيء أبداً حتى وإن اضطرت للاستمرار بدفع إيجار الشقة في لندن.. لكن واقع أنه يعتقد نفسه قادراً على شرائها لتقيم في ذات المنزل مع ذلك الشيطان العجوز وأنها قد تقبل، جعل دمها يغلي

غضباً، ولكنها تمكنت جاهدة من السيطرة عليه.

- ألف جنيه؟ أهذا كل شيء؟ لا عجب إذن أن تكون مليونيراً إذا كنت تدفع للتابعين لك مثل هذه الأجور التافهة.

رد بحقد:

- سيكون الشيك من حسابي الخاص، وليس من حساب الشركة.. والتابعين لي كما تصفينهم يقبضون أجوراً أعلى من المعدلات العامة.

أغضبته دون شك، لكنها لاحظت أن قدرته كبيرة في السيطرة على أعصابه، فأكمل:

- لن يكون العمل صعباً بالتأكيد؟

- وهل رأيته؟ أو سمعته؟

لكنه لم يرد، بل وضع ستاراً على غضبه منتظراً رداً مباشراً منها.. وأعطته الرد:

- أنت تطلب الكثير.. ولا أستطيع القيام بذلك.

- لماذا؟

كان يتحداها لتعطي الرد، بينما كان كل ما تريده أن تنام وتنسى كل شيء. ثم تحولت نظرته إلى التفكير وتابع السؤال:

- هل أنت خائفة أن يتسبب لك ولدا عمتك بالمتاعب؟ إذا كان الأمر هكذا، فأنا...

قفزت تقاطعه بحرارة وكبرياء:

- لا يمكن لابني عمتي أن يمساني.. ربما يملكان كل ما يمكن أن يشتريه المال.. وبإمكانهما أن يتمتعا بالنظر إلى قريبتهما الفقيرة من فوق رأس أنفيهما.. يمكن لهما أيضاً أن يخجلا مني.. لكنني سأقول لك أمراً أكيداً دايف ميرديت.. إنهما لا يقاربان أبداً في خجلهما مني مقدار خجلي منهما!

أحست بالندم لتسرعها في إظهار الحقيقة من بين شفتيها.. وقال دايف بهدوء:

- إذن لماذا لا تبقين لتريهما حقيقة معدنك؟

ارتاحت لهدوئه اللطيف وهي التي لم تستطع لجم غضبها.. وهذا أفضل فأبواب الجحيم كانت ستنفتح لو تواجها غاضبين.

سألته:

- أتعني أن أريهما أنني مؤهلة مثلهما تماماً؟

- كلنا خلقنا متساوين.

- البعض متساوٍ أكثر من الآخر.

فهمت من نظرته إلى ساعته أنه أمضى ما يكفي من وقت معها لمناقشة المسألة ولم تكن متدهشة أبداً حين قال بمعجرفة أصبحت تعرفها عنه.. وكأن الوقت حان لتعطيه الرد: حسناً..

حسناً.. اثنان يمكنهما التمتع بلعبة المعجرفة.. وارتفعت ذقنها قليلاً وهي تتجه إلى باب غرفتها، فتحته على مصراعيه ثم قالت ببرود:

- سأفكر بالأمر.. وستحصل على ردي النهائي في الصباح.

تحرك نحوها وترك الغرفة دون كلمة.. وأدركت أنه غير راضٍ أبداً.

تمتمت وهي تغلق الباب خلفه غير مهتمة إن كان سمعها أم لا..

- ولا تحبس أنفاسك انتظاراً.

لكن مع صعودها إلى السرير وجدت مايفس صعوبة كبيرة في الاستسلام لنوم هانىء إذ كانت تستيقظ كل نصف ساعة تقريباً.. كانت تدرك تماماً أن لا شيء يمكن أن يغريها بقضاء ليلة أخرى في «روزيكرز» لكنها وجدت كذلك أنها لن تستطيع إبعاد عرض دايف ميرديت الغريب عن أفكارها.

تقبلت أن محبته لجدها هي الدافع الذي جعله يضع عدائيته الشخصية جانباً ويطلب منها البقاء لإبهاج العجوز.. لكن إذا كان ما رأته من وجه قريبها المتجهم يسمى ابتهاجاً، فهي ترجو أن تكون بعيدة جداً حين يتغير مزاجه ويتلاشى هذا الابتهاج.

استيقظت مجدداً بعد نصف ساعة نوم أخرى تشعر بعدم حاجتها للنوم

مجدداً مع أن الوقت مبكر جداً.

تحركت بهدوء لتغتسل وترتدي ملابسها، ثم تركت غرفتها ونزلت إلى الأسفل.

لم يكن لديها معلومات واضحة عن المكان الذي ستقصده.. فتقدمت عبر الردهة تفتح الباب إلى غرفة الفطور لتجد أن المائدة محضّرة ربما منذ الليل الفائت على يد السيدة أوكنر.. وتقدمت إلى الباب الزجاجي الموصل إلى الشرفة فالحديقة التي بدت هادئة مغرية، وسرعان ما فتحته وخرجت.

كانت تقف بعد دقيقة تحت قنطرة من الورد الزهري اللون، تتمنى في ظل هذا الجمال الهادىء أن تصل إلى الراحة من الأفكار التي كانت لا تزال تتسابق في رأسها، لكنها لم تحصل على مبتغاها.

كانت تتساءل خلال الليل عن سبب دعوة دايف لها للبقاء، في وقت لم ينفك فيه عن الظن بأنها تسعى وراء مال جدها.. هنا.. في حديقة الورود، ودونما حاجة للكثير من التفكير، جاءها الرد.

لقد أخبرها أن جدها لم يكن ثرياً، لكن كيف حدث هذا ووالدها كان دائم القول إن المؤسسة ناجحة ومزدهرة؟ أرادها دايف أن لا تجني شيئاً سوى المبلغ الذي سيمنحها إياه إذا بقيت، ولم يزعجه واقع أنها قد تكون تفكر بحصة من المنزل والأرض القائم عليها بعد انتقال جدها إلى «الحياة الأخرى».. فصحيح أن جدها في التاسعة والستين، إلا أن ما رأته أنه يبدو قوياً بما يكفي لشق طريقه نحو تسع وستين سنة أخرى.. وهذا ما يجعله وقتاً طويلاً عليها قبل أن تستفيد من أي خطة.

أحنت رأسها لتشم عطر وردة.. لكنها تشعر أنها راغبة في البقاء.. فمع وجود دايف ميرديت في روزيكرز ترى أنها ستمضي وقتاً رائعاً لتنتقم، ليس من ابني عمتها المتعاليين فحسب بل منه بشكل خاص.

تنهدت.. يا للأسف.. ثم وجدت شيئاً آخر ترسل أفكارها نحوه.. لقد لفت انتباهها صوت فتح الباب الزجاجي في سكون الصباح الباكر،

لترى جدها يخطو إلى الخارج.

بقيت في مكانها.. وعرفت أنه شاهدها.. لكن إذا كان سيتصرف مثل صباح الأمس، وكل ما سيفعله هو أن يحييها بجفاء، إذن فبالنسبة لها بإمكانه فعل ما يشاء.

لكن لدهشتها تقدم ببطء نحوها.

خرجت «صباح الخير» من فمها في وقت كانت تنوي أن تجعله يتكلم أولاً.. ثم أضافت:

ـ أنت تستيقظ باكراً بنشاط.

ـ أفعل هذا دائماً.

ـ إذن هناك شيء مشترك بيننا.

وكادت تعض لسانها، فهي لا تريد أن تكون مثله في شيء.. أو مثل أي منهم.

ـ وهل هذا يدهشك؟

ربما ليس الأمر مدهشاً، لكنها لم ترغب في متابعة الحديث.. فقالت تغير الموضوع:

ـ أخبرني دايف أنك في التاسعة والستين.. هل تقاعدت عن العمل؟

ـ لا زلت أذهب أحياناً إلى المكتب.

ـ المكتب في فيرني دروفيلد؟

ـ يا إلهي.. لم يكن لدينا مكتب في فيرني دروفيلد منذ عشر سنوات..

جذب وردة إلى الأمام وبدا راضياً عن شذاها، فتركها وقال:

ـ تبعد المصانع الأساسية في «بيدويك» عشرة أميال من هنا.. والمكاتب الرئيسية هناك أيضاً.. أما كنت تعرفين هذا؟

ردت متصلبة:

ـ إذا كنت تشير إلى العنوان الذي ذُكر في صحف يوم الجمعة فسأقول لك ما قاله تماماً لدايف ميريديث: أنا لم أقرأ الصحيفة يومها.

نظر إليها بحدة:

ـ أنا لم أقصد هذا.. كنت فقط أتساءل ما إذا كان والدك قد أزعج نفسه في متابعة ما كنا نفعله.. هذا كل شيء.

ـ وهل تابعت أنت ما كان يفعله؟

لم يعطها رداً على هذا، وتبع سؤالها صمت متجهم حتى أنها فكرت بالعودة إلى الداخل.. لكن لم تعرف لماذا بقيت إلى جانبه.. فهو لم يحاول كسر الصمت الذي حل عليهما.

وجدت نفسها تسأل فجأة بوجه وقور وشيء من الخوف:

ـ لماذا لم تحاول الاتصال بأبي بعد تركه البيت؟

ـ ولماذا أفعل؟ لقد هرب مع يتيمة مفلسة ولا أمل في استمرارية اسم باريت.

فتحت فمها لترد، لكنه سلبها اندفاعها قبل أن تتمكن من قول كلمة:

ـ حتى دون كلمة إلى جدتك.

عرفت أن جدتها كانت محبوبة منه أكثر، وربما هذا هو سبب بؤسه في شيخوخته.. لم يكن لديها فكرة عن زمن موتها ولم تكن تعتقد أن هذه اللحظة مناسبة لتسأل عنها.. وبدلاً من ذلك تابعت موضوع الحب ووجدت نفسها تسأل:

ـ ألم تحب والدي؟

جعله سؤالها يستدير وينظر إليها.. وقال:

ـ الحب زاوية بوجهين مايقس.. كان بإمكان ريتشارد أن يتصل بي طوال كل تلك السنوات، وتعرفين هذا.. إذا كان يحبني.

التفت عنها، وامتدت يداه عمداً لتعبثا بالورود المتشابكة.. عرفت مايقس في لحظة صحو مفاجئة أن هناك مشاعر تتخبط في داخل جدها.. مشاعر استدار ليخفيها عنها.

فجأة كذلك لم تعد ترغب في أن تقسو عليه بالكلام كما فعلت صباح الأمس.. وقالت بهدوء:

ـ أظنه كان يحبك جدي.

لم يظهر أي حركة تدل أنه سمعها.. وأبقى ظهره إليها.. إلى أن لم يعد باستطاعتها منع نفسها عن القول:

ـ أعتقد أنه أسماني باسم أمك.. ولا شك أنه فعل هذا إكراماً لك.. ألا تعتقد؟

استدار جدها، ورأت بوضوح مشاعره بالرغم من محاولته إخفاءها.. غادرته نظرته العنيدة وبدت قسمات وجهه أكثر ليونة رغم عدم وجود ابتسامة، وإذا لم تكن مخطئة كان في عينيه نظرة دامعة.

لكنه لم يقل شيئاً.. وظنته مختنقاً لا يستطيع الكلام، فدفعتها تلك المشاعر مجدداً إلى التفتيش عن شيء تقوله لمحاولة إبعاده عن هذه اللحظة. قالت مع أنها تنوي أن يكون هذا سرها:

ـ أوه.. لقد طلب مني دايف البقاء لفترة.. فما قولك في هذا؟

ولعنت لسانها السليط.

ماذا تتوقع منه أن يقول.. تنحنح قليلاً ثم قال شيئاً جعلها تحدق به بدهشة:

ـ إنه منزله.

ـ منزله؟.. لكن.. لكن كنت أعتقد أنك ووالده اشتريتماه مناصفة؟

ـ هذا ما كان.. قتل والد دايف في حادثة سير حين كان ابنه في الخامسة عشرة.. وهذا ما جعلني بمساعدة أبيك مسؤولاً عن المؤسسة إلى أن أنهى دايف تعليمه.

قاطعته:

ـ لكن والدي لم يكن يحب الهندسة؟

ورأته يعبس قبل أن يوافق:

ـ لا.. لم يكن يحبها. ولم يكن لديه اهتمام بالعمل أبداً. ولطالما تشاجرنا حول هذه المسألة في كثير من المرات.. على أي حال.. رحل والدك. وخلال السنوات التالية وقع زوج عمتك تحت ضغوطات مالية..

ثم ماتت جدتك وبدأت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ في المصنع.

كانت هناك صورة تبرز أمامها، لكنها حاولت إيضاحها أكثر فسألت:

ـ هل كان دايف في الجامعة في ذلك الوقت؟

هز رأسه إيجاباً:

ـ لم أكن أملك القوة لإخباره عما آلت الأمور إليه..

تنحنح مرة أخرى:

ـ.. لكن حين أصبح مستعداً للبدء في العمل.. كانت المؤسسة كلها تقف على شفير الهاوية.

ـ أوه.. يا إلهي! وهل تكدر كثيراً؟

ـ لقد اكتشفت فيما بعد أن دايف إنسان عملي ولا يكتفي بوضع الخطط.. كان يشمر عن ساعديه حين يجد أن هناك عملاً يجب أن ينفذ.

صدقت مايقس هذا، وتساءلت ما إذا كانت قد أصبحت بدورها تحت عنوان «عمل يجب أن ينفذ».. لقد رأى دايف، أو ظن أنه رأى، أن وجودها هنا يبعث البهجة في نفس جدها.. ومع أن دافعه هو المحبة للعجوز الذي كان له بمثابة الأب الذي فقده في مراهقته، فقد رأى كذلك أن من واجبه طلب البقاء منها.. وبالرغم من كرهه لها كما تكرهه، شمّر عن ذراعيه لينفذ عملاً دون أن يتوقف للتفكير بالمهمة، ولأنه لا يريد أن يخسر في مسعاه هذا قام بإغرائها بمبلغ الألف جنيه.

عادت إلى متابعة الحديث وسألت:

ـ لكن ما الذي حدث لإنقاذ مؤسسة باريت وميرديث من الإفلاس؟ أيمكن أن يكون دايف قد استطاع بنفسه انتشال المؤسسة وتثبيتها على قدميها؟

من خلال ما قاله جدها يلزم حدوث معجزة للوصول بالمؤسسة إلى حيث هي الآن.

رد بصوت مليء بالاحترام:

ـ هذا ما فعله.. صحيح أنني ساعدته، لكنني لم أستعد يوماً ذلك

الحماس الذي كان لي أيام بدأت مع والده. ذلك الفتى كان يعمل ليلاً نهاراً، ولقد خاطر كثيراً للحصول على القروض المصرفية. ثم تولى أمر تسوية الأمور مع دائني وشيئاً فشيئاً تمكن من النهوض بذلك الحمل الثقيل.

بدا لمايقس أن لدى عائلة باريت الكثير لتشكر دايف عليه، لكنها لم تكن مهتمة بالانضمام إلى فريق المعجبين بدايف ميرديت، فأكملت أسئلتها:

ـ أفهم أن المؤسسة قد مرت بأزمة، لكن لماذا بعت المنزل؟

ـ في النهاية كان دايف أو المصرف سيحصل عليه، كانت حصتي مرهونة. ولقد استخدم دايف مالاً ورثه من عائلة أمه ليفك الرهن، وأحست بارتياح كبير لهذا.

كان جدها صريحاً جداً. وأدركت ساعتها أن فعله غير المتوقع هذا، هو بمثابة مديح لها. إضافة إلى أنه ارتاح كثيراً لإفضائه بمثل هذا الحديث. لقد كان يبدو أكثر ارتياحاً مما كان عليه قبلاً.

ـ إذن دايف لا يملك المنزل الآن فقط، بل هو يملك المؤسسة أيضاً؟

قال بخبث بطريقة أجفلتها للحظات:

ـ يبدو أنه أخبرك الكثير!

أدركت أنها على وشك أن تزعجه بمزاحها، فسألته جادة لتغيير الموضوع.

ـ وماذا عن كلارك؟

ـ إنه كوالدك لا يهتم بالمؤسسة. مع أن دايف أوجد له مركزاً في المصنع حيث يتلهى لخمسة أيام من كل أسبوع.

فجأة، وكأن ذكرى ابنه وتخليه عنه، أو الحديث عن كلارك الذي يشابهه تفكيراً أعادت تبلسون باريت ليكون الرجل العجوز المتجهم الذي عرفته مايقس حتى هذا الصباح.

أحست بشيء ينمو في داخلها بالتدريج تجاه هذا الرجل، فقد عرفت

الآن أنه يحب والدها حتى ولو لم يصرح بهذا طوعاً، وهذا أمر لا بأس به بالنسبة لها. ووجدت فجأة أنها تريد ممازحته لإخراجه من مزاجه المتجهم.

قالت:

ـ ماذا أقول جدي. هل ستمسكها مذلة عليّ أيضاً كوني يتيمة مفلسة؟

راقبت وجهه العنيد الذي ازداد عناداً دون أي حركة على فمه المشدود، وتساءلت مايقس للحظات ما إذا كانت قد تمادت كثيراً. لكن، وبطريقة سحرية لا تصدق، التوى فمه عند الزاويتين. فاستدار عنها ليعبث بوردة وكأنه يخجل من أن يرى أحد ابتسامته.

رماها بالوردة التي بدأت تتفتح لتوها: خذي.

أدركت وهي تأخذها منه أنه قطفها خصيصاً لها، وعاد بوجهه إلى القناع الوقور العادي وهو يقول:

ـ قد تكونين دون والدين، لكن لديك عائلة. وتذكري هذا.

ـ أجل. جدي.

لحقت بخطواته وهو يستدير عائداً باتجاه باب الشرفة. وأدركت أنها تشعر بأنها أفضل حالاً.

لكن شعورها الجديد هذا لم يعش طويلاً. فقد وجدت دايفد ميرديت بدلة سوداء رسمية جالساً إلى طاولة الفطور حين خطا جدها إلى الوراء ليسمح لها بالدخول أمامه.

خمنت من النظرة الباردة التي رمقها بها أنه كان يراقبها في الحديقة مع جدها. حسناً أليس هذا ما أراده؟ ولاحظت نظرته إلى الوردة التي تحملها، فقالت تميل إلى الاستفزاز بدل التجاهل:

ـ صباح الخير دايف.

لم وجدت الإغواء شديداً، ولم تستطع أن تقاوم اندفاعاً لأن تمسك الوردة أمامها وتديرها بين أصابعها في اتجاهه.

عرفت من نظرتها إليه وعدم رده على تحيتها، أنه بدأ يندم على طلبه منها البقاء.. وجلست في ذات المكان الذي شغلته صباح الأمس، وبينما تبادل جدها ودايف بضع ملاحظات، راحت تتساءل لماذا لم يغتبط دايف لاتفاقها مع جدها، بدليل إعطائه الوردة لها.. وما إذا كان لا يزال يعتقد أنها تسعى إلى ما تبقى من أملاك جدها، خاصة وأن لا علم له بأنها عرفت بأمر امتلاكه للمنزل.

وصلت السيدة أوكنر قبل كاتلين مباشرة، ثم خرجت لتحضر البيض واللحم الذي طلبه الجد.. ثم قالت كاتلين بابتهاج:

ـ لقد أصبحت جاهزة، ولدي وقت يكفي للشرب فنجان قهوة، ثم سأقلك إلى المحطة لتلحقي بقطار الثامنة.

أحست مايقس على الفور بثلاثة أزواج عيون تنصب عليها.. كانت كاتلين متوددة أكثر هذا الصباح.. حسناً، هي لا تحتاج إلى تعليل من أحد لمعرفة السبب.. فابنة عمتها العزيزة لا تستطيع الانتظار كثيراً لإبعادها.

قالت تمد يدها ببطء إلى قطعة توست:

ـ هذا حقاً كرم كبير منك كاتلين.

أخذت قليلاً من الزبدة بحذر ووضعتها على طرف طبقها، كانت عيناها تلتقطان الاستفزاز في عيني دايف، ثم وضعت ملعقة من المربى قرب الزبدة؛ ولمحت هذه المرة جدها ينظر إليها، تعابير وجهه متجمدة.. يا له من منزل كئيب! ثم اكتشفت أن لسانها المتزلق يوصلها فعلاً إلى أصعب المواقف.

وبما أن الجميع كانوا ينتظرون شيئاً تقوله، فقد بادرت إلى الكلام:

ـ حسناً.. بعد أن تدبرت أمر من سيوصلني إلى المحطة لألحق بقطار لندن.. أريد أن أعرف من الذي سينتظرني هناك حين أعود هذه الليلة؟

كانت كاتلين الأولى في كسر الصمت، وصاحت: ستعودين؟

واختفى كل الود من صوتها ووجهها.

ـ ما كنت سأذهب.. لكن يجب أن أعود إلى شقتي لأجمع أشيائي

وأحضر ما يكفيني لإقامة طويلة.

صاح جدها بصوته الراعد:

ـ فليكن الفطور من بيضتين سيدة أوكنر.

واضح أنه تقبل بهذا فكرة إقامتها، ولا شيء يضيفه على الحديث بينها وبين ابنة عمتها.

ـ وهل ستعودين لأجل إحضار ثيابك؟

أحست بالغضب من نفسها لتورطها مع ابنة عمتها البطيئة في الاستيعاب.

ـ هذا صحيح.

واتجهت عيناها إلى دايف:

ـ سأبقى لفترة.. ولدي ألف سبب يدفعني للبقاء.

قضمت التوست وهي تراقب عيني دايف الجليديتين، وشعرت بالسعادة لأنه لم يعجب أبداً بتلميحها إلى «الألف سبب» كإشارة إلى الألف جنيه التي ستخرج من جيبه عندما يحين موعد مغادرتها النهائي.. وأنها تحتاج إلى أن يدفع لها لتبقى.

* * *

٥ ـ الزيت والماء

كان بعد ظهر يوم أحد رائع. . فخرجت مايفس لتتمشى، تفكر بأنها استطاعت تحمل الحياة في «روزيكرز» أكثر بكثير مما تصورت منذ شهر.

لم تكن قد عرفت حتى الآن كيف تركت الفرصة للسانها بأن يورطها بقبول دعوة دايف ميرديث. . صحيح أنها لم تكن تنوي أخذ الألف جنيه التي عرضها عليها، لكنها جعلته يظن العكس. . كانت كبرياؤها تمنعها من السعي إلى محاولة تغيير رأيه بها. . أما رأيها به كونه أبغض رجل عرفته فلم يتغير.

كان من السهل عليها أن تكره جدها حين كانت صورته مبهمة. . وأن تكره بكل سهولة كذلك ولدي عمتها اللذين تعتبرهما مغرورين متعجرفين. . لكن بعد الأسابيع الأربعة التي عاشتها مع الجميع، وجدت أنها تستطيع التأقلم معهم لشهرين آخرين عدا دايف. واكتشفت أن الفكرة التي كونتها سابقاً عن الثلاثة لا تتطابق أبداً مع شخصياتهم الحقيقية.

سرعان ما اتضح لها أن خجل ربك الطبيعي كان سبب عدم كلامه معها أول مرة. . وبالرغم من ذهابه إلى الجامعة فقد ظل المسكين خجولاً بشكل كبير.

ولأنه دائماً وكشقيقته يتأخر في النزول إلى الفطور فقد كانت تراه عادة وقت العشاء. . لكنه كان يتغلب على خجله معها.

أما كاتلين فقد جعلها عدم نضوجها الكافي ساخطة عليها في الأسبوع الأول، لكن تصرفها تغير بعد مشاهدتها لتبادل كلام قارص بينها وبين

دايف إثر تعليقه الساخر على رسالة وصلتها:

ـ هل هي رسالة من حبيب يتوسل أن تعودي إليه؟

نظرت مايفس إلى الرسالة في يده التي تحمل خط ويليس غراهام، وتحتوي على الأرجح على إيصال بأجرة الشقة التي أرسلتها.

كانت قد ابتسمت ساعتها، وأثارت غيظ دايف كما أرادت تماماً. . مع أنها لم تكن تعرف سبب شعورها بالابتهاج لتبادل الكلام القارص بينهما.

قالت ترد عليه بعينين متسعتين:

ـ لن يدهشني هذا أبداً. . لكن سنضطر للانتظار، فأنا أعرف تماماً جهة الخبز التي أضع الزبدة فوقها. ألا توافق معي؟

رد بخشونة:

ـ ليس لدي أي شك في هذا. . فأنت. .

وصمت بعد ظهور كاتلين المفاجئ، التي سألت:

ـ هل تتشاجران؟

ردت مايفس بحدة:

ـ إنها ضريبة العيش في هذا المنزل.

ودون كلمة أخرى دفع دايف الرسالة إليها وابتعد إلى مكتبه. . فاتجهت مايفس لتصعد السلم غاضبة لحرمانها من فرصة المواجهة معه، واكتشفت ساعتها فقط أن كاتلين إلى جانبها تسأل بلهفة:

ـ ألا. . تحبين دايف؟

ردت دون تفكير:

ـ أحبه؟ أنا أكره رؤيته!

ـ حقاً! لقد ظننت. . .

وكم تغير تصرف كاتلين نحوها بعد هذا. . ومر أسبوع آخر، قبل أن تراها تعتذر فعلاً عن تصرفها السابق.

فقالت مايفس:

ـ انسي الأمر.. فأنا أتوقع تصرفك هذا مع أي امرأة تحت سن الأربعين تحاول السكن هنا.

قالت كاتلين مبتسمة:

ـ فقط إذا كن بمثل جمالك.

ثم احمر وجهها قليلاً بعد أن أدركت أن مايفس فهمت سبب رغبتها في أن تغادر المكان في أسرع وقت ممكن. وسألت بخجل:

ـ وهل المسألة واضحة هكذا؟

سألت مايفس تميل إلى اللباقة:

ـ أنت متعلقة بدايف؟

ـ إنه أكثر من مجرد تعلق.. أنا أحبه.. لقد كان لطيفاً جداً معي حين انفصل والداي. إنه..

وصمتت فجأة مجفلة:

ـ لن تخبريه بالأمر.. أليس كذلك؟

كان لمايفس فكرة مسبقة عن معرفته بالأمر، من خلال العديد من المرات التي لمحت فيها دايف يحاول إبعاد كاتلين عنه، لكن أمام ذعر الفتاة قالت:

ـ المناسبة الوحيدة التي نتكلم فيها معاً هي عندما نتشاجر.

وهذا ما جعل ذعر كاتلين يتلاشى، وانصبت الأسئلة منها حول السبب في عدم محبتها لدايف في وقت هو...

استدارت مايفس لتجد أن الوقت حان لتعود إلى المنزل، وهي تفكر أن ابنة عمتها استخدمت كثيراً من الصفات في حديثها عن دايف.. وجميعها بعيدة كل البعد عن تلك التي تفكر هي بها.

لم يكن دايف حاضراً على العشاء ذلك المساء، وهذا ما تقبلته مايفس بابتهاج.. مع أنها اضطرت للاعتراف بأن الأمسية كان ينقصها الحيوية.. أخفت شعورها بالإحباط لغيابه، وسألت جدها:

ـ أتظن أن لديه موعداً؟

رد بلهجة نكدة:

ـ لن يدهشني الأمر.. فهذا معروف عنه.

لم يبق أحد ذلك المساء في غرفة الجلوس ما عدا مايفس.. فقد ذهبت كاتلين إلى غرفتها بعد العشاء مباشرة وتوجه نيلسون باريت إلى غرفة جلوسه الخاصة ليدخن الغليون.. ومع أن كلارك جلس معها قليلاً، إلا أن الحديث توقف بينهما بعد نصف ساعة فغادر بدوره إلى غرفته بعد أن بذلت مايفس جهدها لإبعاده عن خجله.

برامج التلفزيون يوم الأحد مملة عادة.. فذهبت مايفس إلى النوم عند العاشرة.. وكانت ساخطة بقدر سخط كاتلين، حين أدركت أن غياب شخص واحد من العائلة غيّر كل شيء..

لم تستطع النوم في تلك الليلة، ووجدت أنها تفكر وتتساءل مراراً وتكراراً عن نوع النساء اللواتي يستهوين دايف؟ لم تكن هذه المرة الأولى التي لا يحضر فيها للعشاء في المنزل.. ومرت في خاطرها فكرة أن يكون على صداقة حميمة مع امرأة.

لم تعجبها الفكرة وعللت انزعاجها بأن كاتلين ستتكدر جداً إذا عاد إلى المنزل يوماً وقال لهم إنه سيرتبط.

حاولت إبعاد تفكيرها عن دايف فوجهت أفكارها نحو ريك.. دفعتها جهودها لجعله يتغلب على خجله، إلى سؤاله عن عمله في المصنع.. وقد فهمت من ردّه أن جدها كان على حق في بيع حصته.. لقد اتضح لها بسرعة أنه لا يملك الجرأة ليقول للرجل العجوز إنه لا يرغب بالعمل هناك.. وواضح كذلك أن غياب جدها عن المصنع، سيدفع ابن عمتها إلى ترك العمل في المؤسسة مع أن لا فكرة لديه عن أي مهنة أخرى سيعمل بها.

في الصباح التالي خرج جدها من الباب الزجاجي لينضم إليها في حديقة الورود:

ـ هل سبقتني إلى هنا؟

حبته:

ـ صباح الخير جدي.

أصبحت نخرج كل صباح إلى حديقة الورود منذ صباح يوم الاثنين الذي رأت فيه تأثره العاطفي.

ـ هناك فتق في قميصك.

ـ وهل تعرفين كيف ترتينه؟

ردت بحلاوة:

ـ ألا يعرف الجميع هذا؟

ـ السيدة أوكنر ترقعه.

ـ إذن سأصلحه بنفسي.

ووجدت نفسها تبتسم بحنان لجدها.. وسألت:

ـ هل عاد دايف ليلة أمس إلى المنزل؟

استقام من انحناءة فوق وردة.. ونظر إليها بخبث:

ـ وأنت أيضاً؟

ـ أنا.. ماذا.. أيضاً؟

ـ هل وقعت في حبه مثل ابنة عمتك الصغيرة العقل؟

ـ وقعت...؟ بدايذد ميرديت؟

لكنها استعادت وعيها بسرعة وقالت ممازحة:

ـ كم يجب أن يكون عمرك لتُعتبر خرفاً؟

لم يغضب جدها.. وإذا كان معجباً بروحها القتالية كما قال دايف، فلا شك أنه يعتبرها وقحة، لكنها شاهدت ما يشبه اعتذاراً من الابتسامة التي بدت على فمه وانحنى بسرعة فوق الورود وقطع منها وردتين.

قال:

ـ اغفري لي دعابتي الضعيف.

وقدم لها الوردتين بانحناءة احترام:

ـ كنت فقط أختبرك.. وما كنت لأعتقد أنني مخطىء في كونكما

كالزيت والماء لا يمتزجان أبداً.

وجدت مايفس أن جدها لم يخطىء في تقديره، لقد نظر إلى ما وراء قناع البرود المتمدن الذي تتعامل به مع دايف ورأى بخبث أنهما لن يتمازجا أبداً.

قالت متمتمة لا ترى سبباً يدعوها لإنكار عدم اتفاقها مع دايف.

ـ كان يجب على أمه أن تشد أذنيه أكثر مما فعلت وهو صغير.. أين هي أمه على أي حال؟ هل هي ميتة أيضاً؟

ـ لا.. مع أنها تعرضت لجروح كثيرة في الحادثة.. لقد أحبت الرسم وانتقلت فيما بعد لتعيش في اسبانيا لأنها بدأت تنزعج من الروماتيزم.

سارا معاً نحو الباب الزجاجي ودخلت إلى المنزل بينما توقف جدها ينظر إلى شيء ما ثم أدركت أن دايف بقي طوال الليل في الخارج وأنه عاد لتوه ليبدل ملابسه وينزل في الوقت المحدد للفطور.

رأته ينظر إلى الوردتين في يدها، ثم تجولت عيناه القاسيتان على وجهها.. فتذكرت أنها تلقت منه نظرة مماثلة في ذلك الصباح الذي حصلت فيه على وردة من جدها. تلاشى كل المرح منها وقالت متصلبة:

ـ صباح الخير دايف.

ثم اتجهت إلى مكانها المعتاد حول المائدة لتضع الوردتين قرب طبقها.. لاحظت أنه لا زال يراقبها فتدفق منها الكلام:

ـ من يعلم.. قد أحصل على باقة كبيرة منذ الآن وحتى رحيلي.

ـ هذا كل ما ستحصلين عليه.

لكنها كانت من طينة أشد قسوة من أن تسمح له برؤية ألمها المفاجىء.. وبرزت كبرياؤها إلى العلن.. فأخبرته النظرة العدائية التي بدت في عينيها أن وخزته أصابتها لكنها لم تؤثر بها أبداً:

ـ سأحاول أن أتذكر ترك عنواني لك لتأتي وتسترد أدوات العائلة الفضية.

وجلست في مقعدها بكل رشاقة.

ـ قلت سابقاً إنك تملكين شقة، ولكنك لم تذكري أين أبداً.

مدت يدها إلى إبريق القهوة.. ثم تمتمت: ولن أفعل.

ثم صبت له كعادتها.. فقال ببرود:

ـ ظننت أنك ستقترحين مجيئي لزيارتك.

وضعت الإبريق بشدة على الطاولة، ونظرت العينان الخضراوان الحادتان كالسهام إلى عينيه السوداوين المعاديتين.

ـ هذه فكرة.

وضاقت عيناه وقد أدرك أنه سيسمع كلاماً غير مؤدب:

ـ أنا أعيش في شقة في الطابق الأول.. وفكرة رمي دلو ماء عليك تروق لي كثيراً.

لكن نصرها كان قصير الأمد.. وكل ما كان يفكر بأن يرد دايف به قاطعه دخول جدها من الباب الزجاجي.. لكن في وقت ما سيرد لها ما قالت مع الفوائد.. وتعرف هذا.

قالت: قهوة جدي؟

ولم تنظر أو تتكلم مع دايف مرة أخرى إلى أن غادر المنزل إلى عمله.

* * *

تراجع شهر أيلول أمام تقدم تشرين الأول الرائع، وقالت كايت:

ـ لا يمكن أن يستمر الأمر هكذا.

كانتا قد اتفقتا على الذهاب إلى القرية لشراء بعض الحاجيات.. اقترحت كايت الذهاب بسيارتها لكن مايفس فضلت الذهاب سيراً على الأقدام.. ومع أن كايت عارضت متأوهة، إلا أنها استسلمت في النهاية.. وراحت تتحدث عن الحفل الراقص الذي ستقيمه المحافظة في «بيرويك» الأسبوع المقبل. لقد ذكرت كايت الأمر لمايفس من قبل وعرفت أن الجميع تقريباً يحضرون هذه المناسبة.

سألت مايفس ابنة عمتها:

ـ وهل سيذهب دايف؟

ـ لا أعتقد.. لقد سألته لكنه لم يبدُ متحمساً، ثم دخل جدي وقاطع الحديث فلم أحصل على الرد. سأسأله مرة أخرى هذه الليلة.

لكن كان قد مر نصف وقت العشاء تلك الليلة، قبل أن يُذكر موضوع الحفلة الراقصة. ولم توجه كاتلين كلامها إلى دايف بل إلى جدها الذي لم يبدُ عليه الحماس.. واستمرت بالكلام دون توقف عمن سيكون موجوداً.. وأخيراً ختمت كلامها بالتوسل للحصول على فستان جديد.

كانت مايفس شاردة الأفكار حين فاجأها سؤال نيلسون باريت بدل الرد على طلب ابنة عمتها:

ـ وهل ستذهبين أنت إلى تلك الحفلة أيضاً؟

كانت على وشك قول «لا» دون تفكير، لكنها التفتت دون سبب إلى الجهة الأخرى من الطاولة.. لماذا ينظر دايف عابساً نحوها؟ تعتقد أنه يظنها غير مناسبة للانضمام إلى حفلة رسمية كهذه.. لكن لماذا العبوس؟

التفتت إلى جدها مع شيء من الخبث:

ـ أنا مثل كايت.. لا شيء عندي أرتديه.

دفعتها طبيعتها المشاكسة إلى حمل دايف على الاعتقاد بأنها تحاول الحصول أيضاً على ثوب للحفلة من جدها العجوز.. فلتدعه يعتقد أنها تتطفل مع أنها لا تنوي مطلقاً أن تدوس قاعة الاحتفال مساء الثلاثاء القادم. وتمنت من كل قلبها أن يجاريها جدها في لعبتها حتى ولو عرف دايف فيما بعد أنها لم تأخذ من جدها بنساً واحداً.

قال الجد معلقاً بفظاظة:

ـ سمعت مثلاً يقول إن أولاد المرء هم سبب فقره، لكن لم يقل لي أحد أبداً أن أحذر من الحفيدات.

أطلقت كاتلين صيحة ابتهاج لموافقة جدها على شراء فستان جديد لها، بينما اكتفت مايفس بابتسامة رضى.

فجأة تحرك كلارك الذي لم يقل كلمة طوال فترة الطعام، ومال بغير

ارتياح في مقعده إلى جانب مايفس.. وخاطبها وكأنه استجمع كل ذرة من شجاعته.

قال بعجلة:

ـ قبل أن يسأل أحد غيري.. هل أستطيع أن أصحبك إلى الحفلة مايفس؟

كان خجولاً جداً لدرجة أنها رأت احمرار أذنيه:

ـ لكن..

وعلقت جملة: «أنا لست ذاهبة» في حلقها.. لم يكن عدم معرفتها لأحد يمكن أن يدعوها إلى الحفلة أمراً مهماً لها، بقدر أهمية ما التقطته بإحساسها المرهف من أن ريك سيعاني إحساساً رهيباً إذا رفضت طلبه أمام الجميع.. ولا بد أن ابتسامتها كانت مشجعة فقد بدا وكأنه يرغب في الاختباء تحت الطاولة..

قالت:

ـ لا يمكنني حقاً التفكير بأي شخص أفضل للذهاب معه.

وراقبت ابتسامة مترددة تظهر على فمه، ثم تتسع لتصبح ضحكة ابتهاج.. وكان لا زال يبتسم حين دفع دايف كرسيه إلى الوراء وأبهج بدوره كايت إذ قال لها:

ـ سنذهب جميعاً.

التفتت مايفس إليه، لكنه نطق بما يريد دون اعتراض من أحد وسار بسرعة ليخرج من الغرفة، ولحقت كايت به. أما ريك الذي كان يبدو وكأنه لا زال غير مصدق حظه، فقد خرج كذلك يتمتم بشيء حول إعطاء قميصه للسيدة أوكنر لتكويه جيداً.

بقيت مايفس لوحدها مع جدها، لم تكن مستعجلة للذهاب إلى أي مكان فجلست مذهولة تحاول معرفة حقيقة ما جرى.

قال الجد وقد كادت تنسى وجوده معها:

ـ من الأفضل أن تذهبي مع كاتلين إلى «بيرويك».. ستصحبك إلى

المحلات التي أملك فيها حساباً خاصاً.

ـ لم أكن جادة حين قلت إن لا شيء عندي أرتديه.

لكن لو كانت صادقة مع نفسها فستعترف أنها لا تملك فعلاً شيئاً مناسباً لهذه الحفلة.. وسمعت جدها يصرّ أسنانه غاضباً فعرفت أن مزاجه تغير، وقال متوتراً:

ـ وهل ستعانديننني مثل والدك؟

نظرت مايفس إليه بعناد.. إنها لا تريده أن يدفع ثمن ثيابها.. وتفضل أكثر أن لا تذهب، ثم تذكرت وجه كلارك وأذنيه المحمرتين.. كانت تنظر بتمرد إلى العينين الزرقاوين الباهتتين، وتذكرت فجأة العاطفة التي غمرتها صباح ذلك الأحد بالتحديد.. وفكرت ساعتها: إن كانت أمها قد تألمت مما كتبه لها هذا الرجل فهو بدوره تألم أيضاً على يد والدها.. إن جدها يتهمها الآن بأنها تعانده كما كان يفعل ابنه قبلاً.. أدركت أن من الأفضل لها رمي العناد الذي يجري في دمها لجهة عائلة باريت، فلولا طباع والدها وجدها المتصلبة، لتمكنا من تسوية خلافاتهما ولكان جدها، على الأخص، أكثر سعادة.

وكأنه شعر أنه أعطاها وقتاً كافياً لتقرير ما إذا كانت ستستمر بعنادها أم لا: حسناً؟

استسلمت بتمتمة:

ـ أيها المبتزّ.. وهل ستذهب أنت إلى هذه الحفلة؟

هز رأسه مع ابتسامة ظاهرة:

ـ سيعتني دايف بأمرك إذا كنت متوترة بخصوص مسألة التعريف عنك كفرد من هذه الأسرة.. مع أنني واثق أنك ستتعاملين مع كل من يتساءل لماذا كنا نخبئك.

قالت بجفاء:

ـ يجب أن أتذكر أخذ العصا معي.

وضحكت.

شهد الصباح التالي ذهاب مايفس مع ابنة عمتها للتفتيش في محلات «بيرويك» عن فستانين مناسبين للحفلة.. وسرعان ما رضيت كايت بفستان طويل ناسبها تماماً، ولم يعد لحماسها حدود في التفتيش عن فستان لمايفس.

توصلنا أخيراً إلى فستان من الساتان الأحمر المكسو بالشوفين، بدون كتفين.. وبتنورة طويلة كالحلم، وما إن ارتدته مايفس لتجربه، حتى اضطرت للاعتراف بالإثارة.

ومع ذلك نولاها العبوس وهي تتصور دايف وليس كلارك مرافقها ينتظر عند أسفل السلم وعيناه مسمرتان عليها وهي تتهادى نزولاً.

مع حلول نهاية الأسبوع واستعداد مايفس للنزول إلى العشاء، كانت قد فقدت كل حماس.

كان كلارك يزعجها بتصرفاته.. فقد أخذ يوليها اهتماماً أكثر مما ينبغي منذ قبلت دعوته.. ولم تعرف ما تفعل حياله فهي لا تريد أن تجرح مشاعره وتدفعه للعودة إلى قوقعة خجله.

لولا معرفتها بخوفه من جده لكانت همست في أذنه، لكن الموقف يحتاج إلى الرقة ولا تحسب العجوز قادراً على التعامل معه.

لم تستطع فهم سبب تفكيرها بدايف على أنه الشخص الوحيد الذي يستطيع التعاطي مع المسألة بشكل فعال.. فهو بالنسبة لها لا يتردد أبداً في معالجاته الجريئة.. ولو أرادت أن تحكم على النظرة الحادة التي تلقتها منه ليلة أمس أثناء تناول القهوة بعد العشاء، لحظة سارع كلارك لتقديم الفنجان لها، لعرفت أن دايف مؤمن بأنها تشجع كلارك.

تركت غرفتها لتنضم إلى الآخرين قبل دقيقة من الساعة الثامنة، ففاجأها كلارك وقد تلاشى كل خجله.

ـ ها أنت هنا مايفس! لقد ظننت أن ساعتك توقفت.. أو شيء ما.

ابتسمت له دون إرادة منها، والتقطت لمعان عيني دايف الغاضبة.

قالت بخفة كاذبة:

ـ تخبرني معدتي دائماً عن الوقت بدقة. إني أتضور جوعاً.

كانت مايفس تشعر بالتوتر، وبدا لها أن الوجبة ستستمر إلى الأبد، لكن أخيراً حلت لحظة تمكنت فيها من مغادرة الغرفة دون اعتراض أحد.. وضعت منديل الطعام بعفوية إلى جانب الطبق، لكنه انزلق فسارع كلارك لالتقاطه وأعاده إلى الطاولة فتمتمت:

ـ شكراً لك، لو عذرتموني.. لدي بضع رسائل أريد كتابتها.

لم تنظر وراءها، ورغم سماعها الكراسي الأخرى تتحرك من مكانها إلا أنها أبقت نظرها على الباب، وانفلتت منها تنهيدة ارتياح لتحررها من نظرات دايف القاتمة، وتعابير كلارك الهائمة.. لكن الراحة التي أحست بها لم تعش طويلاً.. فهي لم تكن قد ابتعدت بضع ياردات حين سمعت شخصاً آخر يغادر الغرفة، ليصبح خلفها تماماً.

كان كلارك أول شخص تبادر إلى تفكيرها.. ولم تتح لها الفرصة للتفكير ثانية، فقد امتدت يد قاسية لتمسك بمعصمها وتشدها دون كلمة أو احترام، وفجأة أصبحت محبوسة داخل مكتبة دايف ميرديث بعد أن صفق الباب خلفه بحزم وكأنه يبلغ الجميع بأن يبقوا بعيداً.

لم أدارها لتواجهه.. فانهارت معنوياتها. لقد كانت عيناه.. مشتعلتين!

* * *

٦ ـ واشتعلت نارٌ أخرى!

نظرت مايفس مشدوهة إلى عيني دايف ميرديث الغاضبتين والمنذرتين بالشر.. ولم يكن لديها وقت لتلاحظ المزيد فقد جرها دون وقار إلى المكتبة، حيث بدأ يهاجمها بشراسة رامياً معصمها من يده بازدراء وهو يقول ساخراً:

ـ ما الذي تعتقدين أنك تفعلينه بحق الجحيم؟

صاحت ترد عليه:

ـ ما الذي أظن أنني أفعل؟ قد تنفع أساليب رجال الكهف هذه مع النساء اللواتي تعرفهن.. لكننا في لندن متمدنون أكثر من هذا.

ـ أنت لست في لندن الآن.. أنت في الريف، حيث نبدو أقل ثقافة ولباقة..

قاطعته:

ـ أتقول إنك غير مثقف ولا لبق دايف؟

ـ أنا لا أتحدث عن نفسي.. وتعرفين هذا جيداً.

لم تكن تعرف.. لكن ما قاله أظهر لها بالضبط الشخص المعني بكلامه.. وهي التي خطر ببالها أن تطلب منه التحدث مع كلارك! بكل تأكيد لا.. فهي لا تحتاج إلى ذكاء كبير لتفهم أن دايف لاحظ كما لاحظت هي تعلق كلارك بها.. وأن دايف لم يعجبه هذا.

قالت متحدية:

ـ إذن نحن نتكلم عن كلارك.

رد بشراسة أكبر:

ـ فهمتها فوراً.. ابتعدي عنه.. فهو غير قادر على التعامل مع فتاة مثلك، وتعرفين هذا جيداً.

آلمها قوله «فتاة مثلك».. لقد أصبح تفكيره واضحاً بالنسبة لها: إنه رغم اهتمامه بالعائلة كلها، إلا أنه لا ينظر إليها بعين الاعتبار كفرد منها.. حسناً، ستدعه يقلق على كلارك..

بدت تصرفاتها غير مبالية.. لكنها كانت تغلي في داخلها.. هزت كتفيها دونما اكتراث وسألت:

ـ وماذا على فتاة مدينة أن تفعل؟ المكان ممل هنا.. وعلى الفتاة أن تبحث عن.. وأنت، إذا كنت تذكر عزيزي دايف، قلت لي بصراحة، إنني سأضيع وقتي إذا لاحقتك أنت.

ومع أنها كانت باردة فقد لاحظت أن كلماتها حولت غضبه إلى جليد قاسٍ: أنت..

وصمت مع رنين الهاتف على طاولته فتمتمت ساخرة:

ـ أنقذني الجرس.

لكنها بدأت تتساءل ما إذا كانت أنقذت حقاً مع عدم تحرك دايف ليرد.. ولم تجرؤ على التحرك إلا بعد أن امتدت يده بتوتر إلى السماعة: فتقدمت نحو الباب قائلة:

ـ كم يساوي في نظرك.. ابتعادي عن كلارك؟

واقع أنها أساءت الحكم على الرجل أمر فاتها إدراكه حتماً، فلم تكد يدها تصل إلى أكرة الباب حتى كانت يده تطبق من جديد على معصمها.. وصاح في الهاتف:

ـ ميرديث يتكلم.

نظر إليها بازدراء وسأل:

ـ من المتكلم؟

ثم دفع بالسماعة إليها، فأدركت أن المخابرة لها. أخذتها منه

وقالت: آلو..

سألها صوت رجل:

ـ من كان هذا بحق السماء؟

صاحت: ويليس!

وبدت السعادة في صوتها، كان هذا الرجل بالنسبة لها أكثر من صديق وأكثر من رب عمل أو صاحب ملك. وهي تحبه وزوجته كثيراً.

فكرت مايفس أن من حسن الحظ تدوين رقم هاتف روزيكرز في دليل الهاتف منفصلاً عن شركة ميرديت وباريت.. وتمنت أن يغادر ميرديت الغرفة، فهي لا تستطيع تجاهل وجوده فيها. سألت:

ـ وهل أنت بحاجة ماسة للاتصال بي؟

ـ أجل.. تلك المرأة التي جئت بها لتحل مكانك قدمت استقالتها.. وهي على أي حال لا تنفع لشيء.. وكنت أتساءل إذا كنت ترغبين في العودة؟

ـ أنا...

ثم ترددت بعد أن تحرك دايف بنفاد صبر دلالة غضبه لتركه ينتظر.. وقالت:

ـ الفكرة تروق لي فعلاً ويليس.. لكن لسوء الحظ لا أستطيع ترك المكان هنا قبل فترة.. في الواقع أنا أقوم بعمل مؤقت هنا.

ـ تعملين؟

ـ مؤقتاً فقط، كما قلت لك، و..

نظرت إلى دايف بسرعة.. وأكملت:

ـ ومع أن الوظيفة ليس لها راتب مغرٍ، إلا أن هناك فرصة رائعة في أن أتلقى مكافأة في النهاية..

ولم تكمل فقد نفد صبر دايف.. طارت سماعة الهاتف في لحظة من يدها لتعود إلى مكانها.. كانت تحاول أن لا تعترف بانقباض معدتها المذعورة من النظرة التي تعلو وجهه والتي تنبيء بوقوع كارثة وشيكة.

حين انفتح الباب ومدت كاتلين رأسها قائلة:

ـ ظننت أنني سمعت صوت جرس الها..

وصمتت بعد أن شاهدت أن دايف يبدو على وشك ارتكاب جريمة.

حاولت مايفس استعادة هدوءها، بينما اعتذرت كاتلين:

ـ آسفة.. لم أقصد مقاطعتكما إذا كنتما تتشاجران مرة أخرى.

قالت مايفس:

ـ خذي راحتك..

واتجهت بسرعة إلى الباب مكملة:

ـ كنا على وشك الانتهاء، أليس كذلك دايف؟

وهربت دون أن تدع له فرصة للرد. لكنها كانت ترتجف لعنف المواجهة.. لم تكن جبانة بطبعها لكنها وجدت أن من الحكمة الابتعاد عن طريقه ليوم أو اثنين.

مع حلول ليلة الحفلة، كانت مايفس قد نسيت تقريباً ما حصل في المكتبة.. وكان الأربعة مجتمعين في الردهة حين اقترح دايف أن الوقت حان للانطلاق.

اتجهت كايت رأساً إلى المقعد الأمامي.. وبمساعدة ريك، دخلت مايفس إلى المقعد الخلفي.

ذهبت الفتاتان في قاعة «غويلدهول» لتفقد زينتيهما.. وقالت كايت وهما تقفان جنباً إلى جنب تنظران في المرآة الطويلة العريضة في غرفة السيدات.

ـ واو.. انتظري إلى أن يراك الجميع!

ضحكت مايفس:

ـ وهل رأيت نفسك؟

ابتسمت كايت.. بينما لامست مايفس الحلى اللؤلؤية التي ترتديها بعد جدال طويل مع جدها. وسألتها كايت:

ـ هل هذه لجدتنا؟

ـ أجل . . وهل تمانعين؟ لقد أصر جدي و . .

رفعت كايت معصمها لتظهر حلية جميلة رائعة:

ـ بالطبع لا أمانع، فأنا أرتدي حلية جدتي الماسية.

أحست مايفس بالارتباك وهي تدخل مع كايت إلى حيث ينتظرهما دايف وريك. . هذه أول مرة يراهما أي من الرجلين دون معطفيهما. . وجعل تقدم دايف إلى جانبها اللون الزهري يتسلل إلى وجهها وهو ينظر إليها.

لكنها وجدت حين رفعت نظرها إليه، أنه لم يكن يهتم إلا باللؤلؤ الذي يزين عنقها، ومع أنها ولأول مرة لم تكن تريد شجاراً معه، إلا أن روحها المتمردة انتصرت واتسعت عيناها وهي توجه كلامها إليه مباشرة:

ـ هدية رائعة. . أليست كذلك؟

ـ وهل أعطاها نيلسون لك؟

رغبت فجأة في ضربه. لكنها كانت ممتنة لاقتراب بعض معارف العائلة منهما، وخلال التعارف العام، قدمها دايف على أنها حفيدة نيلسون باريت الأخرى، وابتلعت رغبتها في ضربه.

لو تُرك الأمر لريك خلال الحفلة، لاحتكر كل الرقصات مع مايفس. . لكن مع مرور ساعة على بدء الحفلة، ثم اثنتين، لم يحصل على أكثر من ثلاث رقصات معها. . ورغم أنها لم ترقص مع دايف الذي بدا كالمصباح الذي تدور حوله كل الفراشات، إلا أنها لم تفتقد أبداً لشريك.

قال ريك متذمراً:

ـ كان من الخطأ أن أجيء بك في أول موعد لنا، إلى حيث يجتمع كل الرجال في «بيرويك».

يقيت مايفس مبتسمة، لكنها لم تكن سعيدة بتعليقه حول أول موعد لهما. . وتساءلت كيف ستتمكن من رفض الموعد الثاني دون جرح مشاعره.

أدارت الحديث إلى موضوع آخر:

ـ تعجبني قصة شعرك الجديدة.

ابتسم مسروراً بملاحظتها هذه.

ـ لقد أرسلني دايف إلى حلاقه بعد ظهر اليوم.

قصدت المائدة المفتوحة مع ريك. . لكنهما لم يأكلا لوحدهما. .

وقال أحد الشبان:

ـ ألن تعرفنا على ابنة خالتك؟

تمتم ريك دون كرم أخلاق:

ـ إذا كنت مضطراً.

وقدم لها الأشقر الشعر، جوردن كلير، ثم أطلق تنهيدة حين وقف معهم شاب من ذات العمر تذكر مايفس أنها رقصت معه.

ـ وأعتقد أنك تريد أن تتعرف إليها مالكولم؟

رد بيني مالكولم:

ـ لقد تعارفنا. . هل لي بأول رقصة بعد الاستراحة مايفس؟

قال ريك، مظهراً حقه:

ـ مايفس جاءت معي.

قال بيني:

ـ أبناء الخال لا حساب لهم. أليس كذلك ابنة عمة ريك؟

اضطرت مايفس للرد على الابتسام. . وسألت:

ـ أين كايت. . لم أرها منذ ساعة.

قال جوردون:

ـ آخر مرة رأيتها كانت مع جوشوا ماورلي.

تساءلت مايفس عندها عن مكان دايف، مع أنه سؤال لم تجرؤ على التفكير به طويلاً.

كان الجميع قد أنهوا طعامهم حين لمحت دايف يدخل غرفة الطعام، ورأت عيناه تطوفان في الغرفة إلى أن استقرتا عليها وعلى الشبان الثلاثة

معها. ظنت للحظة أنه سيتقدم نحوها وأحست بقلبها يترنح. وبكل بلاهة فكرت أنه لم يتقدم منها لرقصة رغم مرور أكثر من ساعتين. لكنها على أي حال ليست مهتمة به أيضاً.

لكنه لم يتقدم إليها.. ولم يطل الوقت حتى انتهت استراحة الطعام، ورأته يبتسم وهذا شيء لا يفعله أبداً معها، وهو واقف يتحدث إلى امرأة في حوالي الثلاثين بشعر أسود مرفوع بطريقة جميلة جداً.

فجأة بدأت مايشي تتمنى أن يحين وقت العودة إلى المنزل.. كانت قد شاهدت كايت تمر راقصة قربها.. وكان ريك يقف مع أصدقاء له، ودايف لم يتحرك أبداً للابتعاد عن المرأة السوداء الشعر، واضح أنه يتمتع بصحبتها.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، ومايشي ترقص مع شاب أكثر نضوجاً من ريك والشبان الآخرين الذين راقصتهم.. وتساءلت إلى متى ستستمر الحفلة.

سألها الشريك:

ـ هل تعيشين في بيرويك؟

ـ أنا أقيم في فيرتي دروفيلد مع أقاربي لفترة.

ومرا بالمكان الذي كان يقف فيه دايف، لتجد أنه اختفى مع رفيقته الفائقة الجمال.

قال الشاب متعجباً:

ـ فيرتي دروفيلد! أنا أعيش في مكان لا يبعد رمية حجر عن هناك.. ربما أستطيع زيارتكم..

قبل أن ينهي دعوته، أو قبل أن تتاح لها فرصة رد مراوغ، قاطعهما شخص.. وبسهولة تركها الشاب، قال دايف ميرديث بلهجة لا تقبل الجدال:

ـ هل نسيت أنك وعدتني برقصة الفالس التالية؟

كانت لا تزال مشدوهة للسهولة التي أخذها بها من بين ذراعي

شريكها، ووجدت نفسها بين ذراعي دايف، يراقصها مبتعداً في الوقت المناسب مع موسيقى الفالس.

كان راقصاً بارعاً، يجب أن تعترف بهذا.. ورفضت أن تغضب منه كي لا يوصلها لسانها اللاذع إلى معركة هنا وسط باحة الرقص. وجعلها رقصه الرائع تشعر بالخفة أيضاً.

سألت بعد دورة كاملة دون أن يتكلم دايف:

ـ هل تقاطع الرقص دائماً لتقول أكاذيب عن وعد من شخص لم تتذكر حتى أنه جاء في ذات السيارة معك؟

ـ وهل تظنين أن بالإمكان أن أنساك؟

لم تفتها سخريته وأجابت بحلاوة:

ـ سأتأكد من أن تنساني.

اكتشفت أن سخريته دفعت الدموع لتحرق عينيها واضطرت لتوجيه قوة إرادتها لتسيطر على ما تعتبره أغرب الانفعالات التي تعرضت لها حتى اليوم.. لم يكن لدايف يوماً مثل هذا التأثير عليها.. لقد كانت مستعدة دائماً، من قبل، لمواجهته في أي معركة..

ـ ما الأمر؟

فاجأها سؤاله فأدركت أنه لاحظ أن التعليق الذي قالته لم يكن لاذعاً كعادتها.

سألت غير مهتمة بأن يعرف أنها تريد الرحيل:

ـ متى ينتهي هذا الاحتفال؟

ـ كنت أظن الجو مألوف لك بعد الحياة التي عشتها في لندن.

قالت ترد:

ـ يجب أن أعترف أن الجو مختلف قليلاً.

حاولت الابتعاد عنه بعد انتهاء موسيقى الفالس، لكن قلبها لم يطاوعها.. فسارت إلى جانبه لمغادرة الحلبة مع مغادرة الآخرين لها، وبدت مندهشة لإبقائه ذراعه تحت مرفقها.

قال يرد على نظرتها المتسائلة:

ـ سنستدعي الاثنين الآخرين.

ـ لكن قد تكون كايت مستمتعة بوقتها!

ـ وربك يستشيط غيظاً لموافقتك على المجيء معه ثم تركه لترقصي مع الآخرين.

ردت:

ـ يبدو لي أنني لا أستطيع الكسب بكلا الحالتين.. فأنت تطلب من ناحية أن أبتعد عنه.. وحين أفعل تتهمني بنسيان حسن أخلاقي.

قال ساخراً:

ـ لا تقلقي مايفس عزيزتي.. أمامنا مسافة عشرة أميال إلى المنزل.. وهذا وقت كافٍ لك لتقولي له إنك لم تقصدي الرقص مع نصف شبان بيرويك.

تملكتها رغبة بشد أذنيه.. خاصة بعدما أضاف معلقاً: مع ذلك، إذا كنت تعتقدين أنك ستجدين صعوبة في التعامل مع ذلك الشاب فبإمكانك الجلوس إلى جانبي في طريق العودة.

قالت من بين أسنانها:

ـ لم يُخلق بعد الرجل الذي لا أستطيع التعامل معه.

لكن مع انطلاق السيارة مسرعة ومحاولة ريك احتوائها بين ذراعيه.. وجدت مايفس أنها تخوض معركة صامتة لإبعاد يديه عنها معظم الرحلة، ورأت أن المرآة الأمامية قد اتخذت وضعاً يكشف الصورة الخلفية كاملة.. وحين وصلوا إلى روزبكرز، كانت تتمنى لو تضرب رأس الرجلين معاً.

كان نيلسون باريت نائماً حين وصلوا، وقال دايف:

ـ من الأفضل أن تذهب إلى النوم ريك.

لكن ريك وقد رأى أن مايفس لم تتحرك بعد نحو السلم، تقدم نحوها وقال هامساً:

ـ تعالي معي.

صاح دايف به:

ـ إلى النوم.. ولوحدك!

وتقدم بجره أمامه إلى غرفته.

قالت كايت تعتذر عن أخيها:

ـ إنه لا يعني ما يقول.. وسيموت ألف مرة في الغد حين يتذكر ما قاله الآن.

ردت مايفس بإشفاق:

ـ أعرف هذا.

كان كل ما تريده مايفس الآن هو أن تصل إلى سريرها وتنام.. لكن كايت لم تكن تبدو سعيدة وسألتها:

ـ هل أمضيت وقتاً ممتعاً؟

ـ بين بين..

ـ لكنني ظننت أنك تتمتعين جيداً أثناء الرقص.

ـ جزء مني يعتقد أن الأمسية كانت رائعة.. والقسم الآخر مات حين رأيت أن «كو موريس» قد عادت إلى البلدة.

عرفت مايفس أن سوداء الشعر هي كو موريس ولا شك أنها حب قديم لدايف.

قالت كايت يأسى وقد وصلتا إلى باب غرفتها:

ـ آه.. تصبحين على خير مايفس.

كان المنزل هادئاً منذ وقت طويل، ولم تعد مايفس ترغب في النوم.. فقد طار من عينيها.. وعرفت مزاجاً متململاً.. كانت قد خلعت الحلي وبدأت تهم بخلع ثوبها حين عادت لتقفل سحّابه دون أن تعرف لماذا أو ماذا تريد.. أحست أنها غير مستقرة محجوزة.. وتنهدت مدركة أن عليها الخروج قليلاً من المنزل.

سارت قدماها بصمت فوق العشب الرطب إلى أن بلغت شجرة ورد، فوقفت عندها ومشاعرها مزيج من الإشفاق والغضب نحو ريك.. كانت

محقة في معاملته كابن عمة خلال الحفلة.. لكنها اعترفت بأنه ما كان يجب أن ترقص مع كل من يدعوها للرقص لمجرد أن تثبت وجهة نظرها.

تملكها الذعر فجأة لسماع صوت في هدوء الليل لم تجد صعوبة في معرفة صاحبه:

ـ قلقة.. مايقس؟

منذ متى يقف يراقبها؟ استدارت لترى دايف يخرج من العتمة بقميصه الأبيض.

بدأ قلبها بالخفقان السريع، وهو أمر عزته إلى الصدمة التي تلقتها.. أحست بجفاف حلقها حين توقف أمامها على بُعد باردة واحدة، ولم تستطع التفكير بشيء تقوله.

وتابع:

ـ هل أنت متوترة لأنني قطعت الطريق على جاك دانتون قبل أن يدبر لقاءً رومانسياً؟

رددت بذهول:

ـ لقاءً رومانسياً؟

لكنها لم تجد في نفسها تلك النار التي كانت تواجهه فيها عادة أثناء هجومه.

قال بلهجة لاذعة:

ـ كان يبدو عليك الليلة أنك تحاولين التعويض عن الشهر المنصرم.

لم تستطع كبح غضبها رغم الصدمة الكبيرة التي أصابتها من كلامه، فقالت من بين أسنانها:

ـ لو كنت مهتمة بأي لقاء رومانسي كما تسميه.. لكان ريك يكفيني.

ـ لكنه كان أسوأ مما توقعته أليس كذلك؟

وأضاف إليها طعنة أشد إيلاماً من أي وقت مضى:

ـ ألهذا خرجت بحثاً عني؟

كانت بطيئة في استيعاب ما يعنيه:

ـ أبحث عنك؟ لم أكن أعرف حتى..

ثم تفجر منها الغضب لمجرد تفكيره بهذا.

ـ أيها الحقير...

وخذلتها الكلمات وقد تذكرت النساء الجميلات اللواتي كن يحمن حوله ذلك المساء.. فأكملت بحرارة:

ـ قد تتزلق نساء كثيرات معك دايف ميردیت.. لكنني لست واحدة منهن.

سخر منها:

ـ أنت لا تفتشين عن علاقة غرامية.. أليس كذلك؟

بدا لها فجأة أن شيئاً في داخله انقطع من رباطه وأفقده السيطرة على صبره. فتحرك خطوة إلى الأمام وأمسك بها، وكان صوته أجشاً خشناً في أذنيها وهو يشدها إليه:

ـ سنبرهن عن هذا.. هل نفعل؟

وقبل أن تفهم قصده أحست بذراعيه حولها، وأصبحت مضمومة إلى صدر الرجل الوحيد الذي تكرهه أكثر من أي شيء آخر.

وهذا ما جعل المسألة أكثر غرابة مما مضى، حين قاومته لبضع لحظات وهي بين ذراعيه، انتزع كل نار الغضب منها واشتعلت نار أخرى بطيئة جداً بدت كشعلة صغيرة داخلها.

همست محتجة:

ـ توقف عن هذا!

لكنها كانت قد توقفت عن المقاومة، حتى ولو حاولت تحريك ذراعيها لتبتعد عنه فلم تكن واثقة أنهما ستطيعانها.. وسألها بصوت آمر:

ـ هل أنت واثقة؟

ـ أجل.

لكن صوتها كان ضعيفاً.. فهي لم تعد واثقة من أي شيء..

وتحركت ذراعاها لتلتفا حوله. . وسرعان ما عرفت أن هناك عناق وعناق مقابل. . ولم يعد في رأسها أي تفكير في أنها تتصرف بغرابة في إحساسها بمثل هذا الشوق لرجل تكرهه.

جمد فجأة. . وأخذ يتراجع عنها. . فرفعت وجهها إليه.

لو أنه رمى عليها دلو الماء البارد الذي وعدته به، لما كانت مصدومة هكذا. . فقد أمسك يديها يبعد ذراعيها عن كتفيه. . وبينما وقفت هامدة، جاءها صوته الأجش تاركاً إياها مذهولة للحظات:

ـ إذن أصبحنا نعرف الآن.

لم تفهم:

ـ نعرف. . ؟ نعرف. . ماذا؟

ـ نعرف أنك كنت في حرمان لفترة طويلة.

حرمان! بدأ الإدراك يهبط عليها. . حتى أنه كاد يخنقها:

ـ أنت. . تعمدت. . الإيقاع بي؟

ولم تستطع أن تصدق!

لكنها مضطرة للتصديق، فقد كانت الحقيقة واضحة في ضحكته الخشنة. . تلك الضحكة التي ليس فيها أي أثر للمرح. . وفي سخرية صوته. . وعادت إلى كراهيته مجدداً. .

ـ أنت تتشوقين لرجل. . لم يكن في نيتي أبداً المساعدة في إبعاد الحرمان عنك. . كل ما ستحصلين عليه هو ألف جنيه فقط. . وعليك التفتيش في مكان آخر عن مثل هذه المكافأة.

دخل الغضب قلب مايقس بشكل لم تعرفه من قبل، كانت هذه المرة سوداء لكن ليس بسواد الكراهية التي أحست بها نحوه. . ومع تحول الغضب إلى جنون، وتحول السواد العميق إلى أحمر متوهج. . لم تعد ترى أمامها سوى الأحمر المهين.

استدارت يدها المتأرجحة في الهواء، كأنما يقودها جهاز توجيه. وبدقة رهيبة استقرت مفرقعة على وجهه بضربة لا يمكن أن تكون أكثر

إرضاء لها. وقالت بعنف:

ـ لقد كنت تطلب هذا منذ زمن طويل. . فاحسب هذه من الألف!

ودون انتظار شيء، استدارت بلباقة واتجهت إلى الداخل بسرعة.

* * *

٧ ـ لا تعرف معنى الحب!

عندما استيقظت مايفس في الصباح التالي لم يكن في نفسها ذلك الرضى الكبير الذي أحست به ليلة أمس بعد صفعتها المؤلمة على وجه دايف ميرديت.. بل على العكس كانت تحس أنها متعكرة المزاج هذا الصباح.

لم تشعر أنها أفضل حالاً حين نزلت إلى غرفة الطعام لتجد أن الجميع متعكري المزاج مثلها. لم تنظر مايفس إلى دايف كما لم تكسر التقليد الذي سارت عليه فتمتمت:

ـ صباح الخير.

وكان الرد العام أقل من متحمس.. ومدت يدها إلى القهوة، ولأول مرة تجاهلت عادتها في النظر إلى الجميع لرؤية ما إذا كان أحد يرغب في ملء فنجانه مجدداً.

كان ريك يبدو كالشبح.. وفكرت دون شفقة: يستحق هذا! وتظاهرت أنها لا ترى النظرات الخنوعة في عينيه.

دقت ساعة في مكان ما معلنة التاسعة، فأجفل ريك بينما وقف دايف على قدميه ثم غادر الغرفة وسارعت كايت تجري وراءه.. بعدها جرجر ريك نفسه ليقف ينظر إلى مايفس نظرة خجل تعمدت أن لا تراها، ولحق بكايت إلى الخارج.

بقيت مايفس لوحدها مع جدها، فأخذت حقيبة الكتف من حيث تركتها على الأرض وأخرجت منها اللآلىء التي كانت ترتديها ليلة أمس

قالت وهي تناوله إياها:

ـ شكراً كثيراً لإقراضها لي.

نظر إليها ثم إلى اللآلىء، لكنه لم يأخذها فوراً بل قال بخشونة:

ـ أريدك أن تحتفظي باللآلىء جدتك مايفس.

لكنها كانت حقاً متعكرة المزاج ذلك الصباح:

ـ شكراً لك.. لكنني لا أريدها.

رعد:

ـ يا إلهي! ويسمونني أنا بالمتكبر!

اختطف اللآلىء ووضعها في جيبه.

قالت كايت بعد أن عادت إلى الغرفة:

ـ يعالي ريك من صداع رهيب.

ردت دون إشفاق: لاحظت هذا.

ـ إذن على الأرجح لاحظت أيضاً أن دايف كان على استعداد للقطع رأس من يتكلم معه كلمتين هذا الصباح.

فتمنت مايفس لو أنها نظرت إليه، ولو فقط لترى ما إذا كانت عينه زرقاء.. فيدها لا زالت تؤلمها من لطمها له.. وتابعت كايت هذرها:

ـ كل هذا لأنني حاولت تحذيره من أن كوزي موريس سترمي شباكها ثانية عليه بعد أن عادت إلى هنا.

ـ ثانية؟

فكرت مايفس أن تلك السوداء الشعر كوزي موريس لا تعرف كم هي محظوظة في فشلها أول مرة، وأكملت كايت:

ـ لقد كادت توقع به مرة.. أو ظنت هذا.. لكنني أعتقد أنه رماها لأنه عرف أنها فاسقة، وتزوجت بعد وقت قصير من رجل عجوز.

ـ وهل هي متزوجة؟

ـ كانت.. لم يطل بها الوقت للحصول على طلاق مع تسوية نفقة ضخمة.

ـ وتظنين أنها عادت لتحاول مرة أخرى مع دايف؟

ـ ألم تريها ليلة أمس؟ كانت مسيطرة عليه تماماً!

لكن كايت لم تنتظر رداً:

ـ سأخرج بنزهة في السيارة.. أتأتين معي؟

هزت مايفس رأسها: لا، شكراً لك.

مع حلول منتصف بعد الظهر، بدأت مايفس تحس بمرح أكثر، ولم تشعر بالندم على توجيه تلك الضربة إلى دايف ميرديث.. فهو كان يستحقها منذ زمن بعيد.

لكنه كان يعد ظهر جميل جداً، وقررت أن لا تفكر بأمره ولا بما يستطيع أن يفعله بها بمجرد عناقه لها.. ركزت أفكارها على أقاربها. كان يجب أن ترفض عرض جدها بأن تأخذ اللآلىء بلباقة أكثر.. لو كانت في مزاج أفضل لكانت قالت له بلطف أكثر إن كايت أحق منها باللآلىء لأن عمتها كانت البنت الوحيدة لجدتها.

مسكينة كايت.. بدا وكأنها نسيت همومها بدايف وهي ترقص بسعادة مع جوشوا ماورلي. وماذا ستفعل بريك؟ لقد بدا محبطاً جداً هذا الصباح حين لم تستطع أن تبتسم له وتعرف أنه كان يشعر ببؤس بمائل مظهره.

ربما يجب أن تبدأ برفع الصوت طلباً للرحيل. لكنها فجأة امتلأت ألماً لهذه الفكرة.. نظرت حولها.. كان المنظر رائعاً.. وجذب قلبها.. عرفت لحظتها أنها بقدر ما تجد أقاربها أحياناً صعبي المراس وكذلك دايف دائماً، إلا أنها لا تريد الرحيل.

كانت قد استحمت عند المساء وارتدت روبها، ثم راحت تفتش في ثيابها عن فستان ترتديه للعشاء حين قرع الباب ورأت ريك يقف هناك.. وسأل بسرعة:

ـ أيمكن.. أن أراك على حدة.. مايفس؟ أريد أن أعتذر عما بدر مني ليل أمس.

كانت على وشك أن تقول: الآن قد اعتذرت.. وتقفل الباب في

وجهه، لكنه بدا لها حزيناً، فدعته للدخول.. ودخل واندفع يعتذر ويكشف أنه تلقى توبيخاً اليوم من دايف.

ـ أحسست بالعار حين ذكرني دايف بما قلته لك.. أذكر أنني وقد رأيتك جميلة بفستانك الأحمر رغبت في احتضانك.. وأظن أن هذا هو كل ما تمنيته حين قلت ما قلته.

كان يكافح حقاً ليقول كل هذا.. ورق قلبها الحنون لابن عمتها.. فابتسمت له قائلة:

ـ حسناً.. عليك فقط بمراقبة لسانك في المستقبل.

رد بلهفة:

ـ أوه سأفعل.. أنا واثق أنني لن أكرر حماقتي..

صمت قليلاً وقد احمر وجهه:

ـ لكنني أعتقد.. أنني أقع في حبك.

قالت بنعومة:

ـ أوه.. ريك.. لا يمكن أن يكون هناك شيء بيننا.

ـ لأننا أقرباء؟

ـ لا.. لكنني.. فقط.. لا أشعر هكذا نحوك.

ـ لكنك لا تكرهينني.. أليس كذلك؟ أعرف أنني لست الأذكى، وأنني متردد.. وتعرفين أنني أكره وظيفتي، ولا تعرفين أي نوع من العمل أحب القيام به.

قالت تحس فجأة أنها أكبر منه بسنوات كثيرة:

ـ كثير من الشبان يشعرون مثلك.. سمعت عن أشخاص كثيرين يغيرون أعمالهم قبل بلوغ الثلاثين ليتجهوا إلى مهنة مختلفة تماماً.. وسيكون كل شيء على ما يرام بالنسبة لك.. وسترى.

رأى أنها اتجهت إلى الباب تفتحه وتقف:

ـ وأنت معجبة بي.. مايفس؟

لم يبدُ على استعداد للخروج قبل أن ترد.. وفتحت فمها لتقول أجل

إنها معجبة به، لكن حركة عبر الرواق خلف ريك لفتت انتباهها.. والتقت عيناها بعيني دايف ميرديت الذي كان على وشك الاتجاه إلى شقته، لكنه توقف واستدار ليراها تفتح الباب.

كانت المرة الأولى التي تنظر إليه فيها مباشرة منذ ما حصل بينهما في الحديقة.. ومضت لحظات تذكرت فيها عناقه لها واستجابتها له؛ لكنها لم تذكر التعليق الذي وجهه إليها عن حرمانها.

ـ أليس كذلك مايفس؟

عادت لتدرك أن ريك كان يكاد يتوسل إليها لتقول له إنها معجبة به.. حرمان! حسناً.. لن تخيب أمل دايف في ما يمكن أن يظنه بوجود ريك في غرفتها.

قالت مبتسمة بحنان لابن عمتها البريء:

ـ أعتقد أنك رائع ريك.

وعانقته برقة.

وتردد صدى إقفال باب شقة دايف بشدة في المنزل كله.. مع أن ريك المذهول لم يسمعه. وكان عليها أن تقول:

ـ هذا لإظهار أن لا ضغينة بيننا.

وكان لا يزال يقف مذهولاً في الممر حين أقفلت الباب.

ساد جو مبهج وقت العشاء أكثر من أي ليلة مضت.

سيذهب الجميع بعد خمس دقائق؛ كل في طريق مختلف، فقد انتهت وجبة الطعام وصبت القهوة. ربما سنشاهد برامج التلفزيون.. دايف كان نادراً ما يجلس لمشاهدة التلفزيون..

ـ هل.. ترغبين في الذهاب معي إلى المقهى لشرب القهوة والرقص هناك الليلة مايفس؟

التفتت إلى ريك، والتقطت وهي تفعل نظرة دايف الضيقة.. لكنها أنقذت من التفتيش عن عذر إذ قالت كايت:

ـ أظن أنك نلت أكثر من قسطك في السهر ليلة أمس ريك.

كان واضحاً أن في نفس ريك بعض العدوانية ولو نحو أخته فقط، لأنه أجاب باختصار:

ـ حسناً.. بإمكان مايفس أن تقود السيارة إذا أحست بالتعاس في طريق العودة.

تدخلت مايفس خوفاً من تطور الجدال قائلة:

ـ أنا لم أتعلم قيادة السيارات.

ورأت أنها حققت ما تريد، واتسعت عينا كايت وصاحت بعجب: لا تقودين؟

كانت مايفس على وشك أن تقول إن هذا الأمر لا يدرّس في مدرستها، لكن ريك قاطع أفكارها مقترحاً:

ـ سأعلمك مايفس.

تأوهت داخلياً، وبدا على دايف أن الفكرة لم تعجبه أبداً، وعليها أن تعترف أنها لم تكن متحمسة لها، وسمعت جدها يتدخل في الحديث ليقول:

ـ ريك سائق ماهر جداً.. لا يمكن وجود أفضل منه.

وكأن قول مديح من الجد أمر لم يُسمع به من قبل. والتفت الأخوان إلى جدهما.. ونظرت مايفس باتجاه دايف لترى أنه لم يكن ينظر إلى أحد سواها.. وكانت نظرة عينيه تقول إنه لم ينس بعد رؤية ريك يخرج من غرفتها، وإنه لا يشك في أنها تجاوبت معه ليلة أمس.

أبعدت عينيها عنه لتسمع ريك يقول:

ـ هل اتفقنا إذن مايفس؟

أجبرت نفسها على الابتسام، راغبة أن تتأثر معنوياتها بنظرة دايف. لكن عيناها كانتا على جدها واتسعتا دهشة حين قال:

ـ سأشتري لك سيارة إذا اجتزت امتحان القيادة.

ذهلت مايفس لعرضه الكريم، وأحست وكأن دايف وقف.. ولم يتحرك إلى أي مكان.. ورفعت نظرها إلى الجهة الأخرى من الطاولة،

لترى التحدي في عيني دايف . . وكأنه يتحداها أن تقبل.

قالت:

ـ من . . يستطيع مقاومة إغراء كهذا . . جدي.

كان دايف قد وصل إلى الباب حين سألته كايت إلى أين هو ذاهب . .

وجاء الرد باختصار: إلى الخارج . . لكن كايت أردفت بلهفة:

ـ مع اللايدي موريس؟

للحظة رهيبة، ظنته مايفس سيخنق كايت. لكنه فجأة ابتسم ونظر إلى مايفس ليرد على كايت:

ـ أنا على عكس زوجها . . أملك عينين ثاقبتين.

قالت كايت بسعادة بعد إغلاق الباب:

ـ هذا يعني أن دايف فهم ألاعيب كوزي موريس.

لكن مايفس فهمت شيئاً آخر، فهو لم يكن يتكلم عن كوزي موريس، فما كان يقصده ويعرف جيداً أنها ستفهمه أنه يعرف جيداً خداع مايفس باريت وطرقها الملتوية! أوه، كم تتمنى لو أنها سببت له سواداً حول عينه!

استيقظت باكراً في الصباح التالي . . وأخرت نزولها إلى الفطور إلى أن تأكدت من رحيل دايف وريك . . فلا جدوى من بدء النهار بمعركة . . لكنها وصلت أسفل السلم لتجد دايف يتحدث عبر الهاتف . .

بدا أنه على وشك إعادة السماعة إلى مكانها، لكن مع رؤيته لها على وشك أن تمر تناولها إياها . . فسألت بصوت يقطر عسلاً:

ـ لي؟ لا شك أنك سألت من المتكلم.

أخذت السماعة لتسمع صوت جاك دانتون، الرجل الذي قاطعه دايف خلال الرقص . . وقال إنه يتصل باكراً لأنه سيغيب معظم اليوم، ويرجو أن تتناول العشاء معه هذه الليلة.

لم تعجبها الفكرة ولا تعرف السبب . . إنها بالكاد تعرفه ولا يعني لها شيئاً.

أخذ دماغها يفتش عن عذر، ولاحظت أن دايف لا يزال واقفاً، إما

ينتظر ريك، أو أنه ينتظر استخدام الهاتف.

وسمعت جاك يكمل:

ـ في الواقع اتصلت بك في السابعة والنصف ليلة أمس، لكن دايف قال إنك خرجت . .

اتجهت عيناها بسرعة إلى دايف، الذي بدا وكأنه القديس . . وأكمل جاك . .

ـ . . . هل أوصل لك الرسالة؟ طلبت منه أن يقول لك أن تبقي حرة هذه الليلة.

قالت:

ـ أجل . . لقد أوصل لي الرسالة . . أيمكن أن تنتظر لحظة؟

وتحركت فيها تلك الشيطنة الطبيعية:

ـ قل لي دايف . . هل جاك دانتون مرتاح مالياً؟

لم يتأخر الفولاذ الذي توقعته عن الظهور في عينيه . . ورد بحدة: مليونير.

ـ أتظن أنه يجب على فتاة مثلي أن تتناول العشاء مع رجل مثله الليلة؟ رد ساخراً:

ـ بإمكانك لعب دور صعبة المنال.

استدار على عقبيه بعد أن قتلها بجملة واحدة وسار عبر الردهة.

في الوقت الذي عاد فيه ريك إلى المنزل ذلك المساء كانت مايفس تجلس في غرفة الجلوس تقرأ مجلة . . وتتساءل ما بالها ترتفع معنوياتها في لحظة ثم تهبط في اللحظة التالية . . ربما كان يجب أن توافق على الخروج مع جاك دانتون . . ربما تحتاج إلى الابتعاد عن روزيكرز وسكانها . .

ـ مايفس.

سمعت ريك ينادي باسمها ثم دخل غرفة الجلوس.

ـ هل أنت مستعدة لأول درس قيادة؟

ـ أوه.. أنت.. بحاجة لترخيص أو شيء من هذا؟

ـ آه.. اللعنة لقد نسيت.. خرجت ساعة الغداء واشتريت لوحات تعليم.. لكنني لم...

تذكر شيئاً وتهلل وجهه:

ـ هناك مدرج مطار غير مستعمل في مكان ليس ببعيد عن هنا.. ولا نحتاج إلى ترخيص للذهاب إلى هناك.

وافقت مايقس، وما هي إلا دقائق حتى كان ريك يقود السيارة بسعادة عبر طرق ريفية ثم إلى مدرج المطار المهجور.

وبكل جدارة أعطاها تعليمات جيدة، وتبادلا الأمكنة لتحاول تجربة براعتها وراء المقود.. لكن حين أطال وضع يده فوق يدها أكثر من اللازم، رأت أنه من الأفضل أن تضع حداً لهذا.

قال ريك بصوت أجش: مايقس.

واستدارت لتجد أن وجهه أصبح قريباً جداً منها، فابتعدت عنه:

ـ لا ريك.. أوه.. ريك.. أنا أحبك.. لكن كابن عمة لي.. وليس أكثر من هذا.

قال بسرعة:

ـ لكن هذا قد ينمو ويتحول إلى شيء آخر.

ـ لا.. لا.. لن يحصل.

ـ وكيف تعرفين؟ أنت لا تمنحين هذا وقتاً كي...

ـ أعرف ريك.

ـ ألأنك تحبين شخصاً آخر؟

رأت أن لا خيار لديها إلا أن تتركه يصدق هذا، وأشاحت بنظرها عنه:

ـ أنا.. أجل.. أنا أحب شخصاً آخر.

كانت رحلة العودة إلى روزبكرز صامتة بعد أن قطعت مايقس أسئلة ريك عمن تحب حين سأل:

ـ هل يعيش في لندن؟

فأوقفته بحدة:

ـ أرجوك.. هذا شأن خاص.

تركته في ردهة المنزل وذهبت رأساً إلى غرفتها، لا تشعر بالسعادة لأنها اضطرت إلى الكذب عليه.

بقي نصف ساعة حتى موعد العشاء، ففكرت بأن تبدل ملابسها.. لكنها لم تكن تشعر بشهية للطعام ولا للصحبة.

لم تكن مضطرة للانتظار حتى وقت العشاء كي تستقبل هذه الصحبة.. فحين اقتحم دايف ميرديث عليها غرفتها، كان واضحاً أنه لا يفكر أبداً بقرع الباب وانتظار الجواب.

ولم يترك لها وقتاً لإحياء معنوياتها المهزومة.

ـ أين كنت بحق الشيطان؟

كانت على وشك أن تصيح في وجهه أنها لا تأبه أبداً سواء كان المنزل ملكه أم لا، فهي كضيفة فيه يحق لها بعض الخلوة.. لكن بدا واضحاً أنه يغلي غضباً لأجل شيء ما.. ولا جدوى من التسبب بكسر عنقها.

ردت ببرود:

ـ مساء الخير دايف.

مرت بها لحظة ذعر للطريقة التي انفتحت فيها فتحات أنفه غضباً لسخريتها.. وكبتت جملة تلطف منك أن تزورني.. لكنها لوحت نحو النافذة، وقالت له:

ـ لو تفضلت بالنظر من النافذة لرأيت لوحة التعليم على سيارة ريك.

لم يتحرك دايف للنظر خارجاً.. وتولاها جبن مفاجيء كاد يدفعها للاختباء تحت السرير لولا أن تمكنت من السيطرة على نفسها.. لكن معرفته هذه لم تخفف شيئاً من غضبه على ما يبدو.

صاح:

ـ حسناً . . بإمكانه الآن نزعها .

وتعالى غضبها وقد نسيت جبنها . . لكن هذا كان قبل أن يضيف بصوت أقل رعداً .

ـ لقد رتبت لك أمر أخذ دروس على يد خبير .

ـ على يد خبير . .

حدقت مايفس به للحظات ثم برد غضبها لقوله المذهل إنه رتب لها دروساً خاصة . . واكتشفت أنها قادرة على الابتسام الزائف ، وهي تسأل :

ـ وستدفع ثمن تعليمي . . بالقطع ؟

ـ ومن غيري ؟

قالت وقد فهمت سبب غضبه ، فريك لم يكن في المنزل ساعة وصل ولا كانت هي . .

ـ آه . . كل هذا . . وغضبك الجارف ورغبتك في أن يعلمني شخص آخر القيادة ، فقط لأنك تعتقد أنني قد أدير رأس ريك ، أليس . .

قاطعها بعدائية :

ـ لقد فعلت هذا وانتهى الأمر .

ـ لكنني . . .

وصمتت ، فقد مات الرد العنيف في نفسها وقد أدركت أن لا قاعدة لها لتنطلق منها . .

أدركت أن مايفس لا زال ينظر إليها بعداء ، وأنه لا يشك أبداً أنها لو أتيحت لها الفرصة ثانية فلن تمتنع عن التودد إليه . . واكتشفت فجأة أنها لا تستطيع لومه . . أحست بالدمار وهي تعي أنها غريبة هنا . . وأنها الوحيدة التي لا وقت لديه لها من بين أفراد عائلة باريت .

لكن لا وقت الآن لتحليل سبب إيلام هذا الواقع لها . . بل الوقت يكفي فقط لتعرف أنها مجروحة . ولا رغبة لها في الشجار معه .

قالت دون رنة في صوتها :

ـ لا داعي للقلق على ريك . . إنه يعرف أن لا فرصة له معي .

رد ساخراً :

ـ أوه . . طبعاً . . لقد أظهرت له هذا بأن افترقتما ليلة أمس حين كان في غرفتك . أليس كذلك ؟

ربما كان ذلك العناق ليلة أمس . . غلطة . . لكنها كانت مسرورة للتصلب الذي كان يأتيها مع إهانات دايف لها . . وقالت :

ـ لقد جاء إلى غرفتي ليعتذر عن تصرفه في الليلة التي سبقت ، والذي لم يع خطورته إلا بعد أن ذكرته أنت به .

لاحظت أن دايف أخذ يتقبل واقع أن ريك يسعى إليها ليعتذر فأكملت :

ـ و . . قلت له ساعتها إنه لا يمكن أن يكون هناك أي شيء بيننا .

عاد إلى عدائيته لسماعه جملتها الأخيرة .

ـ ألهذا عانقته بطريقة لا تمت إلى القرابة بصلة ؟ من تحاولين أن تخدعي ؟

ها قد عادت إلى موقف حرج مرة أخرى . . وعضت شفتها تقول مداهمة :

ـ حسناً لقد قلت له هذا مرة أخرى من وقت قصير . . وهو يعرف الآن بشكل قاطع . . لأنني . . .

وتوقفت عن الكلام فسألها :

ـ لأنك ماذا ؟

اشتعل غضبها وصاحت :

ـ لأنني قلت له إنني أحب شخصاً آخر .

لم يصدقها . . وفهمت هذا من طريقة اشتداد فكه . في الواقع ، بدا مذهولاً ليس لأنها قالت هذا الكلام لريك بل لأنه يظن أن من المستحيل أن تحب أحداً أبداً .

قال بلهجة خشنة :

ـ هذا غير صحيح . . أنت كاذبة .

لم تكن تدري أي تهمة ستنكر، وحاولت منع نفسها من الضعف أمامه مرة أخرى:

ـ لا.. أنا لا أكذب.

ـ لا يمكن أن تحملي الحب لأحد..

ـ يا إلهي..

وشكرت السماء على عودتها إلى طبيعتها، وهي تقاطعه ساخرة..

ـ.. ولماذا أدير ظهري إلى أعزب مناسب حتى ولو كان ابن عمتي، إذا لم يكن السبب أنني أحب شخصاً آخر؟

أدركت لحظة أنهت كلامها أنها كانت مزهوة كثيراً بنفسها.. ولاحظت، دون أن تعرف السبب، أن دايف عاد ليبدو مجرماً مرة أخرى. من الواضح أن تصرفها لا يعجبه.

تحرك من مكانه بسرعة فلم يترك أمامها مجالاً للهرب.. أمسك ذراعيها وأدارها نحوه، وعرفت أن ذلك الخيط الرفيع الذي يمسك بسيطرته على نفسه انقطع.

ـ أيتها الفاسقة الكاذبة!

وامتدت يده الأخرى لتمسك ذراعها الأخرى مكملاً:

ـ أعرف أنك كاذبة.

كانت الأحاسيس ترعد في داخلها، وقبل أن تعرف ما ينوي، رفعها وكأنما لا تزن شيئاً، ورماها على السرير.

دفعتها الغريزة عينها لتجاهد في الوقوف مجدداً.. لكنه لم يسمح لها بأكثر من وضعية الجلوس، بينما راح قلبها يضرب بجنون وخوف، والله يعلم ماذا أيضاً.. وقال بشراسة:

ـ سنثبت كم أنت كاذبة مايڤس باريت.

أوه.. لا..! وانكمشت أحاسيسها وهو يعانقها، وبدأت تقاومه بجنون.. كانت ذكرى معانقته السابقة واستجابتها له من قبل لا تزال حية

في نفسها.. وخافت كثيراً.. خافت من نفسها.

حاولت بيأس تحرير يديها كي تخدشه وتغرز أظافرها في جسمه، لكن مع اشتداد عناقه، كان كل جهدها دون طائل..

صاحت: لا!

لكن ها قد عادت تتملكها مرة أخرى تلك المشاعر الغامضة، وكررت مجدداً: لا!

صوتها الضعيف جعل الكلمة تبدو مجرد آهة.. وأرادت أن تكرر اللا وتكررها، لكن مشاعرها كانت تحولها إلى شخص آخر لا تعرفه.. ولون الاحمرار وجهها، ولم تعد تُصدر أي كلمة احتجاج.

كانت تعرف أن خديها يحترقان.. وأن دايف لن يتركها تنجو بسهولة..

لذلك أحست أن ماءً بارداً رمي عليها حين تركتها يداه، وابتعد عنها... يبدو أن هدفه قد تحقق.. وكانت بسمة الرضى لا تزال على فمها.

فتحت مايڤس عينيها، لترى أن عيناه الباردتان تتفحصان وجهها.. وكان يبدو بعيداً عن كل ما يضج محتراً في رأسها. لكنها لم تكن أبداً متحضرة للكلمات الخشنة التي وصلتها.

قال ساخراً:

ـ لقد تجاوبت معي هكذا رغم ادعائك أنك تحبين شخصاً آخر؟

وتحرك نحو الباب.. بينما استلقت مايڤس تحدق مسمرة وهو يستدير ليقول جملة أخرى:

ـ سيدتي.. أنت لا تعرفين معنى كلمة الحب!

انفتح الباب بهدوء، ثم أقفل.. ولم يعد موجوداً. أطلقت مايڤس آهة تكاد تكون نحيباً.. إنه مخطيء.. مخطيء جداً.. وأدارت جسمها لتدفن وجهها في وسادتها.. إنها تعرف جيداً معنى الكلمة.. والمعنى كان ينمو بالتدريج في داخلها منذ بعض الوقت.. لكن.. دون وعي منها، كانت

ترفض الاعتراف به.

أوه.. بلى.. نعرف جيداً معنى الحب بكل تأكيد.. لأنها تحب..

تحبه هو!

* * *

٨ ـ دموع حقيقية

لم تستطع مايفس أن تعرف كيف نزلت إلى العشاء وكيف تمكنت أن لا تتأخر سوى بضع دقائق، لم تكن تشعر أبداً برغبة في تناول الطعام.. لكن كبرياءها كانت على المحك.. فبعد أن أحست بزلزلة لاكتشافها الجديد، وخزتها كرامتها ودفعتها إلى التصرف بحذر.

قالت بإشراق وهي تسرع إلى غرفة الطعام حيث كان الجميع قد جلس لتوه:

ـ آسفة للتأخير! لا يشعر المرء بمرور الوقت وهو يتمتع بوقته.

كانت فخورة بملاحظتها هذه، ولو أنها لم تستطع التطلع إلى دايف..

قال جدها:

ـ خرجت لأول درس قيادة مع كلارك كما أعتقد.. وهل تمتعت بهذا إلى هذه الدرجة؟

يا إلهي.. المشكلة أنها مضطرة الآن أن تقول لريك إنه الدرس الأول والأخير، في وقت أعطت الجميع ما عدا دايف الانطباع بأنها كانت مبتهجة بالجلوس وراء المقود.

ردت:

ـ كما قلت جدي.. ريك سائق ممتاز.

عرفت وهي تستدير لتبتسم لريك أنه سعيد.. لكنها لم تستطع أن تمنع عينيها من لقاء عيني دايف وعرفت من نظرته الجامدة أنه لا يفكر أبداً

بالوقت القصير الذي احتواها فيه بين ذراعيه.. كان يحيط به جو غاضب بارد فقط، وتركت عينيها تتحولان عنه بطريقة عفوية.. إنه لا زال يعتقد أنها تحاول إغواء ريك.. وعرفت أنها إذا لم تبادر فسيعلن بنفسه أنه قد اتفق مع شخص محترف ليعلمها القيادة.

سارعت تقول:

ـ لكن، في الواقع.. لقد..

فتشت بيأس عن شيء تبتدعه بلباقة، بينما الجميع ينظر إليها:

ـ أذكر صديقة لي علمها قريبها القيادة، وحدثت بينهما شجارات فظيعة خلال فترة التعليم.. لذلك قررت رغم أن ريك معلم ممتاز أنني لا أريد أن أتعلم القيادة.

قال ريك بسرعة: لكن..

قاطعته لا تريد جدالاً حول المسألة:

ـ أفضل أن نحافظ على صداقتنا إذا كان هذا ممكناً.

إيضاحها له أنهما لا يمكن أن يكونا أكثر من صديقين أبعد فكرة إكمال تعليمها عن رأسه.. وكان رده الوحيد ابتسامة لطيفة جعلته محبباً لها أكثر.. وتولت كايت أمر إثارة مسألة أن يعلمها شخص آخر، مما جعل مايفس تضطر إلى التدخل بسرعة مرة أخرى قبل أن يتطفل دايف وقالت:

ـ في الواقع قررت أن لا أتعلم القيادة أبداً.

صاحت كايت:

ـ لكن جدي سيشتري لك سيارة إذا نجحت في الامتحان!

جعلتها كراهيتها لدايف تضطرب وهي تقرأ في عينيه سؤال: ما الذي تنوين عمله الآن؟ وحدقت به متحدية ثم استدارت بسرعة متذكرة أن كايت تنتظر رداً.

ـ لم أكن يوماً ممن ينجحون في الامتحانات من المرة الأولى.

وكانت على استعداد لترك الأمر عند هذه النقطة.. لكن جدها تدخل

بابتسامة مفاجئة إن لم تكن نادرة وهو يقول بهدوء:

ـ أنت مثل والدك تماماً مايفس.

نظرت إليه لترى آثار الابتسام لا تزال عالقة على وجهه. أدركت، سواء أكان والدها جيداً في امتحاناته أم لا، أن جدها لم يكن يشير إلى هذا.. بل كان يقول إنه يعرف على عكس دايف أنها مثل أبيها ليست مهتمة بالممتلكات المادية.

قالت: شكراً جدي.

وأحست أنها تكاد تختنق.

كالعادة انسحب الجميع بعد العشاء كل في طريقه: الجد إلى غرفة جلوسه الخاصة ليدخن غليونه، كايت وريك لمشاهدة التلفزيون، بينما توجه دايف نحو الدرج.. وأرادت مايفس أن تختلي بنفسها كعادتها.. فتوجهت إلى المكتبة دون رغبة في الاصطدام بدايف، وأمضت بعض الوقت في التظاهر بأنها تنتقي كتاباً لتقرأه.

اختارت كتاباً بطريقة عشوائية، وفكرت أن من الأفضل لها أن تلقي التحية على كايت وريك وتقول لهما إنها انتقت كتاباً جيداً وستقرأه في غرفتها، وكانت تغادر المكتبة لتوها حين اصطدمت بدايف وهو في طريقه إلى الخارج.

بغض النظر عن بدء الخفقان المجنون لقلبها، شعرت مايفس بأن دماغها غير قادر على التفكير السوي، ودون أي تفكير بأنها كانت ستلقي تحية الليل على كايت وريك، أدارت ظهرها له، واتجهت نحو السلم.

في غرفتها حاولت القراءة دون جدوى، فوضعت الكتاب من يدها حزينة وجلست تفكر إلى أن حان موعد نومها، وأملت أن تتمكن من إبعاد العالم وكل ما فيه عنها حتى الصباح.

لكن هذا ما لم يكن.. خرجت من السرير في منتصف الليل وارتدت روبها. التفكير بدايف يسهر في مكان ما مع كوزي موريس الرائعة الجمال كان يضيف بُعداً جديداً لتعاستها.

www.liilily.com

شدت حزام الروب حولها وقررت النزول إلى المطبخ لتصنع فنجان شاي، فالله وحده يعرف متى سيعود دايف.. هذا إذا عاد. وأخذت الغيرة تنهش قلبها. إنه لا يعود باكراً إلى المنزل أبداً حين يخرج للسهر.. وهكذا ليس هناك إمكانية أن يقاطع أحد وجودها في المطبخ.

وصلت إلى المطبخ دون صوت.. وسيطر عليها البؤس القاتم وهي تملأ غلاية الماء وتضعها لتغلي.. ثم ذهبت لتجلس إلى طاولة المطبخ.

آه... كيف أمكنها أن تقع بحب مثل هذا الرجل! كل ما تذكره عنه أنه كان دائماً معادياً لها، فظاً، وخشناً معها.. خشناً! وفجأة.. بدأت تبكي.

وازداد عمق إحساسها بالاكتئاب.. ومع تصاعد الرغبة في أن تفضي بسرها إلى أحد، ازداد ذرف الدموع من عينيها.. الشخص الوحيد الذي بإمكانها أن تفضي إليه كان أمها العزيزة.. وهي لم تعد موجودة لتكفكف دموعها.

أفلتت منها شهقة نحيب فأعادها صوتها في السكون إلى ما يحيط بها.. تحركت لتقف عن الكرسي.. فهي ستموت خجلاً إذا عاد دايف فجأة ورآها وقد تخلت عنها معنوياتها. لكنها بقيت حيث هي ودفنت رأسها مجدداً بين ذراعيها على الطاولة وعادت إلى البكاء.

لم تعرف كم من الوقت مضى وهي على هذه الحال، ولم تسمع صفير الغلاية حين غلت المياه فيها، كما لم تسمع كذلك صوت فتح باب المطبخ.

كانت قابعة في بؤسها لا فكرة لديها عن الرجل الذي دخل، حركاته كلها نية في أن لا يوقظ أهل البيت النيام.. وجمد للحظات طويلة حين سمع همهمة الشجن الخفيفة المتصاعدة من الرأس الذهبي فوق طاولة المطبخ.. تحرك فكه مرة ثم تحرك هو.

كانت صدمة قوية لمايفس عندما سمعت صوت الكرسي إلى جوارها يتراجع عن الطاولة.. وصوت يخلو من كل شفقة يقول:

- يا للمسكينة مايفس.. هل أدركت أنك كنت متسرعة قليلاً في لهفتك أن ترفعي أنفك أمامي.. صحيح؟

جعلت الصدمة جسدها يتخشب فلم ترفع رأسها.. لم تفهم أبداً ما كان يقوله دايف، وليست في حالة تسمح لها أن تشغل دماغها لتفهم.. كل ما أرادته تلك اللحظة أن تكون بعيدة عنه وأن تعود إلى غرفتها. ولن تستطيع تحمل أن يرى وجهها مغرقاً بالدموع.

تابع بسخرية:

- لا تلومي نفسك كثيراً.. مايفس عزيزتي..

لكنه لم يلق نجاحاً إذا كانت نيته أن يجعلها ترفع رأسها، فأكمل:

- أنا واثق أنك ستجدين طريقة تجعلين فيها جدك يعوض عليك إما مالاً أو ما يعادله.

جفت الدموع: إنه يظنها منكسرة لأنها حرمت نفسها من سيارة جديدة.. مع ذلك لم تتحرك.. وأحست بالدموع باردة على وجهها.. لكن كبرياءها كانت تمنعها من رفع يدها لمسح الدموع وهو ينظر إليها.

تابع:

- أم أن الأمر أنك أعدت النظر في لعبك دور صعبة المنال مع جاك دانتون الثري؟

وكان على وشك قول المزيد.. لكن في تلك اللحظة قررت مايفس أنها سمعت ما يكفي.

كانت تعي أن دايف يظنها خططت لأن تكون في المطبخ حين يعود.. لكن معرفتها أنه يظنها الفاجرة الأكثر خداعاً وتآمراً كان أمراً أكبر من أن تتحمله.. خبأت وجهها ودموع جديدة تتدفق وخرجت كالصاروخ من مقعدها باتجاه الباب.

لكنها سرعان ما عرفت أن مظهر الرشاقة على دايف لم يكن زائفاً.. فقد وصل إلى الباب قبلها.. واكتشفت، وهي لا تزال محنية الرأس، أنه لن يسمح لها بالهرب.

أمسك بها جيداً بذراع واحدة وأدارها إليه، وارتفعت يده الأخرى لتجبر ذقنها على الارتفاع.. وعرفت وهي تسمع شهقته القوية أنه فهم أنها لم تكن تخادع.

أحست أن كرامتها قد تحولت إلى رماد لمجرد أن أحداً ضبطها وهي تبكي.

ـ ما هذه؟ دموع.. دموع حقيقية.. ومن امرأة صعبة المراس مثلك؟

لم تكن قادرة على الرد عليه، فحاولت بيأس استجماع شجاعتها.. خجلة من وجهها المبلل بالدموع. وسعت لتخرج منديلها من جيبها، وقامت بمحاولة سريعة لمسح آثار الدموع.

وأخيراً وجدت صوتها فقالت بصوت أجش:

ـ هل.. هل ستصدق.. لو قلت لك.. إنني.. كنت أقشر البصل؟

حاولت أن تبتسم لكنها لم تستطع، ثم اضطرت إلى النظر إليه.

ـ لا.. لا أصدقك.. ولا للحظة واحدة.

خمدت قوة الإبداع لديها، لكنها رأت في عينيه بريقاً يقرب إلى التعجب.. مع تصميم يدل على أنه ليس على استعداد لتركها إلى أن يعرف السبب الحقيقي لدموعها.

قال مقترحاً:

ـ لماذا لا تحاولين قول الحقيقة؟

فجأة لمحت الغلاية على النار.

ـ لم أستطع النوم.. فنزلت لأعدّ لنفسي فنجان شاي.

سأل:

ـ وهل تنهارين عادة حين لا تتمكنين من النوم؟

رفعت عينيها إليه تجده مسمراً نظره عليها. أشاحت نظرها عنه بسرعة.. فعدا عن كراهيتها لرؤية أحد لها وهي تبكي، كانت تعرف أنها تبدو مشعثة وأن عينيها لا زالتا مبللتين. قالت:

ـ أظنني سأتمكن من النوم الآن.

وحاولت أن تجذب نفسها من قبضته لكن دون جدوى، وسأل:

ـ هل تناولت الشاي؟

حيرها سؤاله، كذلك الطريقة التي شدها بها وعرفت أنها تحتاج إلى وقت وهدوء.

ـ وهل ترغب أنت ببعض الشاي؟

فكرت أنها ستتمكن بكل تأكيد أثناء الوقت الذي ستحتاجه لصنع الشاي من التوصل إلى شيء!

كان رده أن قادها إلى الكرسي الذي كانت تجلس عليه. لم يكن صوته قاسياً حين قال لها:

ـ اجلسي هنا.

لم يضطر سوى إلى ضغط بسيط لتجلس.. فقد أدهشها خلو صوته المفاجيء من العدائية لها.

تركها ليذهب، وأنزل كوبين مع صحنيهما، وأبقتها الدهشة الجديدة جالسة. فكما يبدو، لم يكن سينضم إليها فقط في شرب الشاي بل سوف يعده بنفسه.

لكن حين جاء بالشاي وتقدم ليجلس قربها، أدركت أن الدقائق التي كانت تعتمد عليها لاختلاق كذبة مناسبة، أمضتها كلها في التفكير به. فأخذت تتلاعب بفنجانها لا تزال غير جاهزة للرد.

قال:

ـ أتعرفين مايقس.. بدأت أعتقد أنك لست صعبة المراس حقاً.

أحست بالذعر. آخر شيء تريده هو أن يبدأ بالتفكير! فقد يكتشف أنها كانت حمقاء لدرجة أن وقعت في حبه.

إنها تحتاج الآن أكثر من أي وقت مضى إلى كبريائها، وإلى أن تكون صعبة المراس كما كان يعتقد.. وأجبرت نفسها على الرد:

ـ لا تمنن عليّ بشيء.. فأنا لم أكن أتوقع قدومك إلى المنزل بعد.. وإلا لما كنت..

قاطعها بحدة:

ـ وإلا لما تركت أحداً يراك وأنت دامعة. ألست مصيباً؟

لم تجبه لأنها سبق واستخدمت كل عدوانيتها المتبقية.. ولم تكن تشعر أنها ند له في تلك اللحظات.. ومن الأفضل لها أن تعود إلى غرفتها.. وفي الغد، قد تكون على مستوى واحد معه.

قال وقد أنهى شرب فنجان الشاي وهي لم تلمس فنجانها بعد:

ـ اشربي الشاي.

أخذت رشفة أو اثنتين وخاضت جدالاً صامتاً مع نفسها.. تغلب العقل السليم عليها بسرعة وكانت على وشك قطع أي أسئلة قد يطرحها بالقول إنها ستذهب إلى غرفتها، حين قال وفي صوته لطف:

ـ هل أنت مستعدة لإخباري الآن لماذا كانت هاتان العينان الخضراوان الجميلتان مرهقتين بالدموع؟

لم تتحرك، لكنها غير مستعدة لقول ما يريد أن يعرفه.. مع أن لديها إحساساً رهيباً بأن الانطباع الذي كونه عنها حتى اليوم يفيد بأنها أقسى من أن تبكي دموعاً حقيقية، وأنه ليس من الصنف الذي سيتركها تذهب إلا بعد الوصول إلى لب الموضوع.

سألت في محاولة لإبعاده عن المسألة:

ـ أتظن أن عيني جميلتان؟

ـ أتحاولين إلهائي مايفس؟

ـ وهل أنت ماكر هكذا دائماً؟

ـ لا أعتقد أن على أحد أن يكون ذكياً جداً ليعرف أنك كنت غارقة بأفكار تعيسة.. فما هي هذه الأفكار التي كانت تدور في رأسك ساعة دخلت؟

لقد فاتها مكراً.. وأعادها إلى الموضوع عينه بسهولة. لكن ما من شيء في الدنيا سيجبرها على قول كلمة.. لن يسمع منها أبداً أن طريقة معاملته لها تركتها يائسة، وأن هذه ليست الطريقة التي تحب أن يعاملها

بها، وأن تفكيرها بأنه يحتوي كوزي موريس بين ذراعيه جعل الغيرة تمزق قلبها.

كان ينتظر.. دون أن يضيف كلمة أخرى، معطياً إياها المزيد من الوقت لتشد عزيمتها.. لكن مايفس لم تكن قريبة أبداً من جمع شتات نفسها.. فالغيرة كانت تتجدد وتهاجم حتى وهو الآن معها.

ـ كنت.. أفكر..

وصمتت.. كانت دموعها مختلطة بينه وبين ذكرى أمها التي لم تكن معها لتفضي إليها بسرها.. وسأل:

ـ تفكرين بماذا؟

أعادت مخيلتها الدموع إلى عينيها، فقد كانت لا تزال تفكر به مع كوزي وتعتقد أنه يهتم حقاً بأمر هذه المرأة رغم كل شيء.

ردت بصوت بالٍ:

ـ كنت.. أفكر بأمي.. فهي ماتت مؤخراً.

ـ منذ متى؟

هل تصورت رنة حادة في صوته؟ أيظنها تكذب مجدداً؟

ـ منذ شهرين فقط.

ـ وهل أحزنك موت أمك كثيراً؟ هل كنت مولعة بها؟

فاتها سماع لهجته اللطيفة وسألته بعدوانية:

ـ وهل أنت مولع بأمك؟

تجاهل عدوانيتها وسأل بصوت مفكر:

ـ لقد جئت إلى روزبكرز بعد شهر من وفاة أمك.. فهل السبب أنك أحسست بحاجة لأن تكوني إلى جانب عائلتك؟

ارتفعت عيناها إلى وجهه.. الحب الذي بدأت تكتشفه كان من النوع الذي يهبط بها إلى الأعماق المظلمة لحظة ثم يرتفع بها فوق قمم الجبال لحظة أخرى.. لقد تغلب الفرح على البؤس لمجرد كلامه، لكن مع نظر دايف يصدق إليها، وجدت من المستحيل أن تكذب حول حاجتها إلى

www.rewity.com

عائلتها، وأنها جاءت لمجرد تنفيذ وعدها لأمها.. لا تستطيع أبداً أن تكذب الآن عليه.

ـ لا.. لم أشعر بحاجة إلى أي من عائلة أبي.

نظر إليها مباشرة وهو يحلل ردها، وظنت أنه لن يعترض الآن على عودتها إلى غرفتها.. لقد اكتشف أن دموعها هي بسبب خسارة أمها العزيزة عليها. وبهذا استنتج أنه كان على حق طوال الوقت في ظنه أن غرضها الوحيد من المجيء إلى روزيكرز هو الحصول على شيء من جدها.

عادت كبرياؤها وبدأت تقف عن كرسيها في نية لتركه.. لكنها وجدت مع امتداد يده لتبقيها جالسة أن دايف لا يعتبر أنه سمع ما يكفيه.

استكانت في كرسيها لأنه ليس لديها خيار آخر، ولكنها صممت أن لا تذكر كلمة عن وعدها لأمها أو عن تلك الرسالة التي كتبها جدها.

لكن ولدهشتها لم يعتبر متابعة الموضوع ضرورية، فهو لم يسألها عن سبب وجودها في المنزل يوم السبت ذاك..

قال:

ـ لقد أخبرني نيلسون أن أمك كانت ضعيفة وهي شابة.. فهل كان الأمر هكذا دائماً؟

ردت بحذر:

ـ لم يشتد عودها إذا كان هذا ما تعنيه.

ـ لكن كان هناك أيام كانت فيها أكثر ضعفاً.. أليس كذلك؟

ـ هذه ليست غلطتها إذا كان هذا ما تسعى للوصول إليه. ما كان يجب أن تحمل بي لكنها أصرت على...

قاطعها بلطف:

ـ لم أقصد هذا.. قلت إنكم كنتم دائماً تحت ضغط مالي وهذا يجعل من غير المعقول أن تتحملوا نفقة ممرضة وبالتالي يجعلني أتساءل من كان يعتني بها حين كانت تمرض؟

أجابت دون تردد:

ـ أبي.. لهذا كنا دائماً نقارب الإفلاس. فصحة أمي تأتي أولاً قبل أي وظيفة، ولو كان فيها فرصة للترقية.

ـ مات والدك منذ ست سنوات؟

هزت رأسها إيجاباً.

ـ من اعتنى بأمك بعد موته؟ كنت يومها في الرابعة عشرة تقريباً؟

ـ تدبرنا أمرنا.

ـ وهل غيّرت وظائفك دائماً كذلك؟

فكرت مايقس بوبليس غراهام وابتسمت:

ـ كنت محظوظة أكثر من والدي.. وكان صاحب عملي أكثر تفهماً.

ـ كان صاحب العمل متفهماً إلى درجة أنك تخليت عن عملك؟

ـ كنت.. مضطرة.

ـ والسبب؟

ردت بحدة:

ـ لم يضبطني أتلاعب بالأرباح إذا كان هذا ما تقصده. حين عرفت.. أن أمي.. لم يبق لها سوى وقت محدود.. أردت أن أمضي معها أكبر وقت ممكن. المسكينة، المسكينة الحبيبة.. كانت قد اكتفت من المستشفيات.. وأردت أن أمرّضها بنفسي.

ارتفعت يد لتغطي يدها فأعادتها إلى حاضرها في مطبخ روزيكرز.. ونظرت للحظات في عينين سوداوين أظهرتا فجأة حساسية لم ترها فيهما من قبل.. وقال بهدوء:

ـ لا شك أن هذا كان قاسياً عليك.

ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت بصوت مختنق:

ـ إذا كان.. هدف هذا الحديث.. إرسالي إلى النوم وأنا أقل بكاء، فأنت لا تقوم بعمل جيد.

ساعدتها ابتسامته المفاجئة كثيراً في التغلب على الضعف الذي كان

. ضاءت البسمة وجهه وجعلته أقرب إلى حبيبه . . . .

ذلك المساء، كانت الدموع جاهزة.

تلاشت بسمته بسرعة وقال بلهجة لطيفة لكن بعبوس رافق كلامه:

ـ ذلك الرجل . . الذي تظنين أنك تحبينه . . هل كان يتسنى لك مقابلته في وقت كنت فيه مشغولة بتمريض أمك؟

ـ كنت أجد الوقت.

ـ وهل كان يعيش معكما؟

ردت بحدة: لا!

ـ هذا أمر إيجابي! لكنكما كنتما على علاقة؟

أرادت بكل بؤسها أن تقول نعم . . لم تفهم أبداً سبب بدء دايف بهذا الاتجاه . . يمكن أن يكون مجرد فضول، فهي لا تستطيع التفكير بأي سبب آخر لأسئلته.

قالت:

ـ في الواقع . . في الواقع . .

وابتلعت كلامها محاولة إخراج الكذبة . . كذبة لم تستطع التلفظ بها أبداً. وأكملت: لا . .

تجهم وجهه:

ـ لكن . . كان في حياتك رجال غيره . . مايقس؟

قالت تنتزع ذقنها من يده:

ـ أنت . . تخوض . . في أشياء . . خاصة جداً.

ورقصت على قدميها استعداداً للركض نحو الباب. لكنها لم تخطُ أكثر من خطوتين قبل أن يمسك بها . . والتفت ذراعاه حولها هازماً للحظة قوتها.

. تلاشت المقاومة من نفسها فاستسلمت، وحين شدها إليه سمحت لرأسها بكل ضعف أن يرتاح على كتفه بأمان.

همست:

ـ أعتقد أنك تدرك الآن أنني لا أعرف جميع قواعد تلك اللعبة التي كنت تحاول أن تلعبها معي.

رفعت رأسها، تعرف أن هذا كله جنون . . وأنه يجب أن يتركها، ففي الغد سينسى كل هذا الكلام . . أما هي فلن تنسى شيئاً.

لكن عناقه اشتد حولها:

ـ لا أظنك تعرفين أي قواعد أبداً . . أليس كذلك مايقس؟

توسلت إليه:

ـ أرجوك دايف . . لا تحلل ما حصل . . ألا يمكن أن نترك الموضوع على هذا؟

نظر إلى عينيها الخضراوين المتوسلتين . . عينان كانتا تظهران حزنهما . . ولم تعرف إذا كان السبب هو ما قالته له أم الحزن الذي في عينيها، لأن صوته اكتسب رنة لطف وهو يقول:

ـ أنت متعبة . . هل ستتمكنين من النوم الآن لو تركتك تذهبين؟

غمرها الارتياح فابتسمت له بخجل، وقالت بصوت هامس: أجل.

وحلقت في الجنة، فقد أحنى رأسه يعانقها، عناقاً لطيفاً، طويلاً. وبينما قلبها يضرب كطبول الأدغال، عرفت أنها قد تفعل أي شيء يطلبه منها.

لكنه لم يطلب شيئاً، فمع عودة ابتسامته أبعدها عنه فجأة ليقول:

ـ اذهبي إلى النوم مايقس طالما أستطيع أن أتركك.

* * *

٩ ـ حنين مؤلم

استيقظت مايفس في السادسة والنصف من الصباح التالي.. ومع عودة الذكرى، لم يعد لديها أدنى فرصة للعودة إلى النوم.

جعلها حبها لدايف رقيقة الإحساس ضعيفة إلى درجة تحطمت قطعاً صغيرة في المطبخ ليلة أمس، وبدت في وضح النهار البارد أقل تصديقاً للطف الذي أظهره لها بطريقة لم ترها فيه من قبل. وعذبتها أفكار مخيفة: لو تابع بدات الوسيلة فستكون في خط الضعف أمامه مرة أخرى، ولن تستطيع الصمود..!

غادرت السرير بسرعة واستحمت وارتدت ملابسها على عجل.. كانت تلاحقها طوال الوقت فكرة أنها إذا لم تفعل شيئاً بهذا الخصوص، فسيعرف دايف بعد وقت قصير أنها وقعت في حبه قلباً وروحاً!

كانت الأفكار المعذبة لا تزال تراودها وهي تتذكر الطريقة التي يعامل بها كايت، وكيف أن عينيها تلاحقانه كيفما ذهب.. صحيح أنها لن تسمح بأن يعاملها بعدم اكتراث، فكرامتها لن تتحمل هذا أبداً.. لكن.. لم تعد قادرة على البقاء في غرفتها أكثر من هذا. فخرجت بصمت تنزل السلم وهي تدرك أنها الآن أكثر من أي وقت آخر بحاجة لأن تبتعد، كي تقيم أفكارها.

كادت لا ترى جدها قادماً من الجهة المقابلة لها من الردهة.. وقال ساخراً:

ـ هل ستسيرين عبري؟

أبعدت أفكارها:

ـ أوه.. صباح الخير جدي.. لا حديقة ورد هذا الصباح؟

ـ سأحضر غليوني.

وكان على وشك التوجه إلى غرفة جلوسه الخاصة إلا أن كلمات مايفس أوقفته.. فقد قالت والفكرة لم يكن لها بعد جذور في رأسها:

ـ أعتقد أنني سأذهب إلى لندن اليوم.

ـ قرار مفاجيء.. أليس كذلك؟

ردت بخفة:

ـ تعرف النساء.. جدي.

قال:

ـ تعالي وأخبريني ما الأمر.

اضطرت للحاق به.. مع أنه لم يكن في دماغها شيء تقوله له.

قالت، تحاول إيجاد عذر:

ـ المحلات في بيرويك جيدة، لكنني أعرف المحلات في لندن بشكل أفضل.. وأعرف إلى أين أذهب بالضبط لأحصل على ما أريد.

ـ إذن أنت ذاهبة في رحلة تسوق!

تقدم ليفتح درج منضدته، ورأته يُخرج علبة نقود قديمة.. لكنها لم تهتم للأمر وهي تكمل شرح أسباب رغبتها في قضاء يومها في لندن.

ـ ليس الأمر هكذا فقط.. فأنا لم أر أصدقائي منذ زمن طويل.. وقد يعتقدون أنني هاجرت.

دفع نيلسون رزمة أوراق نقدية من فئة الخمسة جنيهات إلى يدها فأوقفت كلامها لتصيح:

ـ ما هذا؟

نظر إليها بطريقة لا تقبل الرفض:

ـ ستحتاجين إلى بعض المال إذا كنت ذاهبة للتسوق.

ـ مال!

rayqh

ونظرت إلى لفافة الأوراق النقدية، وحاولت دفعها إلى يده ثانية.

ـ لا أريد مالك جدي.

وراحا يتدافعان المال، هي مصممة أن لا تأخذه بقدر تصميمه على عدم أخذه أيضاً.

قال:

ـ ولا تريدين لأي شيء جدتك كذلك.

وتغضن جبينها وهي تدرك أنها جرحت كرامته حقاً.. وأضاف:

ـ ولا أردت السيارة..

كانت على وشك مقاطعته لتذكره أنها تركته يدفع ثمن فستان الحفلة، حين تنهد وقد بدا عليه الحزن وتابع:

ـ أليس من المسموح لي أن يكون لدي كبرياء كذلك؟

ـ جدي.. أنا..

قاطعها يهز رأسه بحزن:

ـ لا تريدين شيئاً مني..

ـ أوه.. جدي.. أنا..

ـ هل أنت تعيسة هنا؟

أبعد سؤاله أفكارها عن المال في يدها.. وتركها ليقفل صندوق المال ويعيده إلى درج المنضدة.

ردت:

ـ لكنني بقيت هنا.. ألم أفعل؟

ـ أنا سعيد لبقائك، مايفس. لقد صنعت معروفاً لقلبي.. يا ابنتي.

خمدت رغبتها في البكاء عند رؤية ابتسامته.. وعرفت أن ليس من السهل عليه أن يقول هذا.

ـ والآن إذا لم نرغب في أن تلاحقنا السيدة أوكنر فمن الأفضل أن نذهب إلى مائدة الفطور.

فتح لها الباب لتخرج أمامه وتذكر لحظتها لماذا أراد المجيء إلى

غرفة جلوسه أصلاً، فقال وهي تمر من خلال الباب: غليوني.

لكنها لم تتحرك خطوة أخرى، فما إن استدار الجد ليأتي بغليونه وابتسامة السعادة على وجهها لكلامه.. حتى رأت دايف قادماً عبر الردهة على بعد قليل منها.

لم تستطع قول أي شيء وهو يتقدم إليها ويقف.. واحمر وجهها لمجرد رؤيته.. ورأت عيناه تتجهان إلى يديها واشتد احمرار وجهها.. فقد أدركت لحظتها فقط أنها لا تزال تحمل المال الذي أعطاه لها جدها!

لم تكن قادرة حتى على قول صباح الخير له.. وظهر جدها خلفها وهي تبعد المال عن الأنظار وتدسه في جيب بنطلونها، ثم تسير في المقدمة إلى غرفة الطعام. عرفت أنها كانت تبدو كمذنبة.. وأدركت أنها لا يمكنها فعل شيء لتدافع عن نفسها لو اختار دايف أن يجرحها بكلامه.. لكن لماذا تحس فجأة بالانزعاج مما يفكر به.. بينما لم يكن لديها هذا الإحساس قبلاً؟

كانت مقتنعة تماماً أنه فقد عطف ليلة أمس.. فلم يبدُ عليه أي دليل لطف هذا الصباح، خاصة بعد أن صبت القهوة ولم يجد جدها سبباً يمنعه أن يقول لدايف إنها ذاهبة إلى لندن.

سألها بحدة بغض النظر عن وجود الجد:

ـ لماذا أنت ذاهبة إلى لندن؟

ردت بحدة أكبر:

ـ وهل يجب أن يكون لدي سبب؟

تجاهل سؤالها:

ـ ومتى ستعودين؟

اضطرت للعد إلى العشرة قبل أن تحصل على اللهجة المعسولة التي ترغب فيها.

ـ قبل أن تشتاق إليّ.. أنا واثقة من هذا.. عزيزي دايف.

لكن سخريتها لم تنجح سوى في جرح نفسها فقد تجاوز كلامها وقال

كأنه لا يستطيع الانتظار ليتخلص منها:

ـ سأوصلك إلى المحطة.

ـ لا تزعج نفسك لأجلي.

وسرها أن تكتشف أن تهورها الشرير لم يهجرها بعد.. وأكملت:

ـ بإمكاني أن أصعد وأخرج ريك من فراشه..

قاطعها بنظرة قاتلة:

ـ كوني مستعدة قبل الثامنة بعشرين دقيقة.

نجاهته:

ـ مزيد من القهوة جدي؟

في العشرين دقيقة قبل الثامنة بالضبط، كانت مايفس خارج المنزل.. وما إن أقفلت باب السيارة، حتى انطلق بدليل آخر على تصميمه بأن يتخلص منها بسرعة.

لكنه سرعان ما كان يذكرها بالألف جنيه الذي اتفق معها على إعطائه لها بعد البقاء في روزيكرز لثلاثة أشهر.

ـ ذلك الاتفاق بيننا ساري المفعول فقط إذا أمضيت كل ليلة من المدة في روزيكرز.

صاحت:

ـ الآن تقول لي!

ـ ستعودين الليلة أو فالاتفاق ملغى.

أرادت أن تقول له غاضبة ماذا يمكنه أن يفعل بماله، لكنها فضلت التغاضي عن الموضوع.. وقالت:

ـ متى كان مسموحاً لساندريللا البقاء حتى منتصف الليل!؟

قطعا الميل التالي وهو صامت.. لكنه لم يكن قد انتهى منها كما اكتشفت..

قال وصوته ناعم فجأة:

ـ وربما كانت غلطة مني أن أتركك تذهبين إلى النوم ليلة أمس بعد

عناق بسيط.

وعرفت مايفس أنها موشكة على سماع شيء من سخريته البغيضة..

ـ كان يجب أن أعرف من تجاوبك معي في أكثر من مناسبة أن وجودك في روزيكرز تركك متلهفة لذراعي رجل.

أمسكت حقيبة يدها بشدة في حجرها. لقد أصبح واضحاً أنه يظنها ذاهبة إلى لندن لرؤية الرجل الذي قالت له إنها تحبه.

وقالت ببرود قدر استطاعتها دون أن تفوتها ملاحظة طريقة اشتداد ضغط فكيه:

ـ كنت أتمرن.. عزيزي دايف.. لكن كي لا أجرح شعورك أظن أنك يجب أن تعرف أنه يوجد عناق مميز أكثر من غيره.

لم تندهش مايفس للغبار المتصاعد من تحت إطارات السيارة بعد أن أوقفها دايف في باحة المحطة، وخرج منها لنلحق مايفس به.. وسرعان ما وقف أمام زجاج التذاكر رافضاً أن يتركها تدفع ثمن تذكرتها، وسمعته يقول:

ـ تذكرة ذهاب وعودة إلى لندن في الدرجة الأولى ليوم واحد.

وتساءلت كيف يمكنها من ناحية أن تحبه، وتتمنى من ناحية أخرى لو كانت تضع فولاذاً عند أطراف حذائها لترفس عظمة ساقه وتكسرها.

قال وهو يقودها إلى الرصيف ويعطيها التذكرة:

ـ هناك قطار يعود في السادسة إلا عشر دقائق مساء.. كوني على متنه.

لم يكن لديها وقت سوى للقول:

ـ من الأفضل أن تلقاني كي لا يفوتني.. لا أستطيع تحمل رؤيتك غاضباً.

ثم تركها وذهب.

كان لديها وقت طويل خلال الرحلة لتفكر، وهو ما قصدت أن تفعله بابتعادها عن روزيكرز.. لكن، كل الأفكار التي جالت في دماغها، كانت

تدور حول دايف.. وآخرها ذكرى الرجل المتجهم الذي أوصلها إلى القطار.

فتحت النوافذ في الشقة لتهوية المكان، ثم جلست لتفكر إنما لتجد أنها تضيع المزيد من الوقت، ودون أن تعي راحت تدرع الشقة محاولة أن تتوصل إلى ما يجب أن تفعله.

دق ويليس غراهام بابها بعد الواحدة، مما دفعها للخروج من أفكارها، ودخل الشقة قائلاً:

ـ اعتقدت أنك أنت أو أن الفئران ترتدي قبقاباً.. هل ستنقذينني عزيزتي وتقولين لي إنك عدت لتبقي وإنك ستعودين إلى العمل؟

سألت مسرورة لرؤيته:

ـ وهل الوضع سيء إلى هذه الدرجة؟

رد متذمراً:

ـ لم تعمل بديلتك حتى شهر إنذارها.. قالت إن الأمر غير ضروري فهي لم تعمل عندي فترة طويلة.. إنهن يتحكمن برب العمل هذه الأيام.. عودي مايڤس.. وقروي مبلغ راتبك.

قالت:

ـ بعرض كهذا.. من يستطيع الرفض؟

وأسكتتها ابتسامته فلم تعد تستطيع التراجع.

خرجت معه للغداء.. وتساءلت مايڤس هل هو قرار واع؟ هل كانت أصلاً تقصد رؤية ويليس لأجل العودة إلى الوظيفة؟ لم تكن متأكدة، لكن وهي تجلس في القطار عائدة إلى روزيكرز كانت سعيدة لشيء واحد.. لقد توقفت عن الاضطراب المتردد.

لكن كان هذا كل ما لديها، فقريباً ستترك روزيكرز ولن ترى دايف مرة أخرى.. كانت تعرف أنها ستشعر بالألم لفترة ما.. وخفق قلبها متألماً حين نزلت من القطار لتجد دايف بانتظارها.

لم يسألها إذا كانت أمضت يوماً طيباً.. وبدا لها متباعداً كما كان في

الصباح.. ولم يكن معها أي مشتريات.. لذا عرفت أنه يفكر بأن تقديره كان على حق وأنها ذهبت إلى لندن لرؤية صديقها.

لم يحاول دايف المراوغة كذلك.. واضح أنه كان ينتظر إيضاحات حين سأل:

ـ هل رأيته؟

ـ وهل من المعقول أن أذهب إلى لندن.. ولا أراه؟

وضع قدمه على دواسة السرعة، ووصلا روزيكرز في وقت لا يذكر.. وما إن خرجت من السيارة حتى أدارها مرة أخرى وعاد من حيث جاء.

فكرت مايڤس أن لديه موعداً وأن انتظار قطارها تسبب له بالتأخر. دخلت غرفة الجلوس لتجد أنها غير مضطرة للاستعجال، إذ لم يكن هناك سوى كايت في انتظار العشاء. وقالت والاكتئاب بادٍ عليها:

ـ كنت رافقتك إلى لندن لو عرفت أنك ذاهبة.

وعرفت مايڤس أن جدها كان في مزاج منزعج طوال اليوم، وأن وجه ريك كان قلقاً منذ عرف أنه لن يراها قبل المساء.. وسألت:

ـ هل قابلت دايف في المحطة؟

ـ لقد بدا لي مستعجلاً.

ـ إنه في مزاج سيء كذلك.. أرجو أن تضعه كوزي موريس في مزاج أفضل.

إذن هو على موعد معها! شعرت مايڤس بالغيرة وعرفت أنها محقة في قرار مغادرتها.

أكملت كايت:

ـ كل ما قلته له هو إنني أراهن أنك تقضين في لندن وقتاً أفضل من الذي أقضيه أنا هنا.. وكاد يقطع رأسي!

أكملت بعد قليل من التفكير:

ـ ربما هو بحاجة إلى إجازة.. إنه يعمل جاهداً جداً.. ومع ذلك لا

يأخذ أكثر من إجازة أسبوعين كل عام. ولا أذكر أنه ارتاح أياماً إضافية.. ما عدا يوم واحد منذ سنوات حين كان جدي مريضاً.

ـ جدي كان مريضاً؟

ـ أوه.. لم يكن شيئاً خطيراً.. وكان هذا منذ زمن بعيد. كنت في حوالي الرابعة عشرة، لكنني أذكر أن دايف طلب مني أن أكون لطيفة مع جدي لأن أخباراً سيئة وصلته ولا يشعر بأنه على ما يرام.

صمتت مايفس بضع لحظات.. في الرابعة عشرة وفي ذات عمر ابنة عمتها مات والدها وكتبت أمها لتنقل لجدها خبر وفاته.. فهل كان هذا هو الخبر السيء الذي أشار دايف إليه؟ إن كان كذلك، فهذا برهان آخر بأن الخبر هو الذي أحبط جدها وأنه فعلاً يحب والدها.

سألت:

ـ ماذا.. كان يشكو بالضبط؟

ردت كايت:

ـ لست أدري.. نوبة قلبية كما أعتقد.. على أي حال، جاء دايف بطبيب إلى هنا بسرعة ولم يذهب إلى العمل ذلك اليوم.

دخل الجد وريك في تلك اللحظة، مما أعاد الحديث إلى رحلتها إلى لندن.. وكيف تمتعت بيومها.

تركت مايفس أمر إطلاع جدها على قرار رحيلها إلى يوم الأحد.. لم تر دايف منذ أسرع بسيارته للقاء كوزي، ولم يكن وقت العشاء يوم الأحد كذلك.

كانت الغيرة تتآكلها حين أعطت جدها بضع دقائق بعد العشاء ليشعل غليونه، ولحقت به إلى غرفة جلوسه لتطرق بابه.

قال مداعباً وهي تطل برأسها من الباب:

ـ أدخلي! أنا لا أعض.

جلست قبالته تحدثه عن قرارها، وبدا عليه الانزعاج مما قالته له:

ـ سترحلين! غداً! ما سبب هذا؟

ـ لم أكن أنوي البقاء ليلة واحدة يوم جئت إلى هنا.

ـ لقد أربكك الذهاب إلى لندن.. كنت قانعة تماماً هنا قبل ذهابك يوم الجمعة.

قالت: أنا...

ولم تستطع أن تتذكر متى كانت قانعة آخر مرة، لكنها بكل تأكيد غير قانعة الآن.

أكملت بلطف:

ـ أنا أحتاج أن أعمل جدي.. لقد استرحت طويلاً.. في الواقع كانت عطلة جيدة، لكنني أحتاج إلى استقلاليتي.. أحتاج أن أعمل.

هز رأسه متفهماً حاجتها للاستقلالية:

ـ هذه ليست مشكلة.

وجعلها تقفز ذعراً حين أضاف:

ـ سرعان ما سيجد لك دايف وظيفة سكرتيرة في المصنع.

أبعدت نظرها عن عينيه الماكرتين.. ورفضت عرضه بحدة:

ـ لا! لا أستطيع..

جعلتها فكرة العمل لدى دايف ترتعد، ومع ذلك كانت تتوق لأن تفعل هذا.

قال بخبث:

ـ ظننت أنك تتمتعين بالصدام معه.

أجبرت نفسها على الابتسام وسألت:

ـ وهل لاحظت هذا.

قال: آه..

أحست بالرعب للحظات خشية أن يكون قد عرف سرها، لكنها استرخت حين كشف أنه شهد شيئاً آخر، شيء لا علاقة له بدايف.

ـ لا علاقة لدايف بالأمر.. إنه وريك أليس كذلك؟ تعرفين أنه مفتون بك طبعاً.

هزت رأسها وبدأت تنفض بسهولة.

ـ سرعان ما يتغلب على مشاعره.

ـ لكن ليس وأنت هنا.. أليس كذلك؟ ألهذا لا تريدين العمل في المصنع؟ لأنك تعرفين أنه سيرغب في أن يصحبك إلى هناك كل يوم ويعيدك معه في المساء؟

كان من السهل التمسك بهذا العذر لتغادر.. لكن ليس من الصدق في شيء أن تجعله كبش محرقة.

قالت:

ـ لن أكون بعيدة جداً.

ورأت أنه على استعداد ليصدق ما يريد أن يصدقه حتى ولو أنها خادعته قليلاً، وتخلى عن أي أسئلة وقال:

ـ ستبقين على اتصال؟ أنت لا تنوين الاختفاء من حياتنا بعد أن وجدناك؟

سألت مبتسمة:

ـ أي نوع من الفتيات تظنني؟

ـ فتاة رائعة..

ثم تجهم وجهه وخشن صوته:

ـ سوف تقولين «لا» كما أعتقد لو عرضت عليك ذات المصروف الذي أخصصه لكاتلين؟

ألمح لها دايف أن جدها لم يعد ثرياً، لكن عرضه بدفع مصروف لها يُظهر أن هناك هوة واسعة بين فكرتها عن الصعوبات المالية وفكرتهم.

قالت:

ـ أنا لا أعترض على مالك أنت جدي.. لكن..

قاطعها سعيداً:

ـ أعرف.. أنت تحبين أن تكوني مستقلة.

ابتسمت لتفهمه وبقي لديها شيء واحد تقوله قبل تركها له يدخن

غليونه بسلام.

ـ أيمكن.. أن لا تقول لأحد.. إنني راحلة إلى ما بعد أن أرحل؟

نظر إليها بعناد وعرفت أن تفكيره ذهب صوب ريك. لكن تفكيرها هي كان مع دايف.. لا تريده أن يعيق طريقها بتعليقه على تراجعها عن وعدها بالبقاء ثلاثة أشهر.. لم تكن تمانع بأن يظن أنها ستعود إلى لندن لأجل الرجل الذي تحب متخلية بذلك عن الألف جنيه التي وعدها بها.. لكن كل ما في الأمر أنها لا تريد الفراق مع دايف وطعم المرارة في فمها بسبب ملاحظاته اللاذعة.

قال الجد بعد صمت طويل:

ـ لك وعدي بهذا.. لن أخبر أحداً بخططك مايفس إلى أن تبتعدي بسلام.

نزلت إلى الفطور في الصباح التالي، كان جدها ودايف موجودين هناك كالعادة. واستقرت نظرتها وهي تأخذ مقعدها على الرجل بالبذلة الرمادية القاتمة.

أشاحت بنظرها ولم تجرؤ على العودة للنظر إليه كيلا تفضحها عيناها.. ثم سمعت حركته المفاجئة.. ودون كلمة لها أو لجدها، ابتعد عن الطاولة وترك الغرفة.

وعرفت أنها لن تسمع منه ما كانت تخشى سماعه.

* * *

نظرت مايفس من فوق آلة الطباعة ساهمة دون أن ترى شيئاً.. تتساءل مرة أخرى متى سيتوقف ألم تركها لروزيكرز.. لقد أصبحت خلال الأسابيع السبعة نحيلة العود، وعرفت أن ويليس مع أنه لم يقل شيئاً قد لاحظ التغيير فيها.. وخمنت أنه يعزو الأوقات التي يجدها فيها تنظر إلى الفراغ، إلى واقع أنها لا زالت حزينة على موت أمها.. صحيح أنها لا تزال تفكر بأمها، لكن التفكير الأكبر الذي يشغل بالها كان محوره دايف ميريديث.. لقد كان السبب في الألم الواخز لقلبها، والذي لا يبدو أبداً أنها

متشفي منه.

كان أول شهر من عودتها إلى شقتها رهيباً. لكنها أحست بقوة أكبر مع بداية الأسبوع الرابع، وبحلول يوم الجمعة عادت تشعر بالرغبة لرؤية دايف، وخاضت معركة هائلة مع مشاعرها لتتراجع.

أخيراً، ومدفوعة بوعدها لجدها أن تبقى على اتصال، اتصلت بروزيكرز.

رغم أنها كانت تريد سماع صوت دايف؛ إلا أنها اتصلت بجدها في وقت تعرف أنه موجود في مكتبه. بدا صوته سعيداً لسماعها، وهو يسأل كيف حالها، ويخبرها أن الجميع مشتاق لها.

ولم تستطع أن تقاوم السؤال:

ـ حتى دايف؟

رد الجد:

ـ هناك شيء ما ليس على ما يرام معه على أي حال.

وعرف قلبها السخيف موجة فرح آملاً أن يكون السبب أنها ليست هناك! وفكرت: حقاً سخيفة.. ثم أصيبت الفكرة بضربة صارعة حين أكمل:

ـ تعتقد كاتلين أنه واقع في الحب.. وأن كوزي موريس تسبب له متاعباً جمة.

سألت بسرعة محاولة إخفاء تأثير الكلمات عليها:

ـ آه.. وكيف حال كايت؟

ـ إنها كدايف.. أصبحت تفضل العشاء في الخارج.

سألت بلهفة:

ـ جوشوا ماورلي؟

سمعت التأكيد من جدها بأن سيارة جوشوا تشاهد دوماً هذه الأيام في طريق روزيكرز الداخلية.

ـ أحمد الله أنها تخلصت أخيراً من تعلقها بدايف.. هل ستعودين إلى

البيت في ذكرى ميلادي؟ سأبلغ السبعين في السادس عشر من الشهر القادم.

كلمة «البيت» التي تلفظها بشكل طبيعي بللت عينيها:

ـ وهل ستقيم حفلة؟

تحركت حماستها فوراً.. فالسبعين ذكرى ميلاد مميزة، ولديها عذر مناسب تماماً لتزور روزيكرز. لكن هذا كان قبل أن تتصور وجود العائلة كلها هناك. كاتلين مع جوشوا ماورلي، كلارك، ودايف مع... ومانت الإثارة.. وعرفت أنها لن تستطيع الاقتراب من هناك.

رد جدها صائحاً:

ـ حفلة! ومن تظنين سيأتي إليها؟

سمعت نفسها بسرعة:

ـ أنت لست سيئاً إلى هذه الدرجة.. مع أنني لم أكن أتمنى أن تكون ذكرى ميلادك في اليوم الذي لدي فيه ترتيبات أخرى لا أستطيع الهرب منها.

وضعت السماعة من يدها وقد وعدت جدها أن تتصل به يوم عيد ميلاده السبعين، لكنها عرفت أنه إذا لم يكن سيقيم حفلة لهذه المناسبة، فسيرتب دايف أمر عشاء مميز من الممكن أن يدعو إليه كوزي موريس.

جعلها دخول ويليس من باب المكتب تدرك أنها قد سرحت بتفكيرها مرة أخرى وهي تعمل..

يوم الاثنين الذي يسبق بثلاثة أيام عيد ميلاد جدها، وضبت القميص الذي اشترته له داخل لفافة ووضعت معه خيوطاً للرتو.. وعرفت أن هذا سيجعله يبتسم.

يوم الثلاثاء كانت تشحن اللفافة يدفعها الحنين لأن تأخذها إلى روزيكرز بنفسها.. ورافقها ذات الحنين يوم الأربعاء وهي تقف أمام علبة البريد ومعها بطاقة تهنئة معنونة إلى جدها.. لكن صورة كوزي التي على الأرجح ستكون جالسة إلى جانب دايف.. جعلتها تضع البطاقة في

www.rewity.com

الصندوق وتعود جرياً.

يوم الخميس في المكتب يوم هادىء عادة..

لكن لرغبتها أن تجري المكالمة في وقت لا يكون فيه دايف موجوداً، لم تتح لها الفرصة قبل الساعة الرابعة.. وكانت يدها فوق سماعة الهاتف فعلاً حين ذكرها ويليس بمخابرة يتوقعها وطلب منها أن تحضر له سندويشاً من مطعم قريب.. قال:

ـ كنت سأذهب بنفسي.. لكن المكالمة ستأتي بين لحظة وأخرى.. وأنا أكاد أموت جوعاً.

قالت وهي تنطلق بطريقها:

ـ ستصبح سميناً.

مع مضي الوقت، ورغبتها أن لا تشغل هاتف المكتب حين تعود إذا لم يكن ويليس قد تلقى مخابرته بعد.. قررت مايفس وهي تمر من أمام غرفة الهاتف العمومي أن تستخدم الهاتف فيها.

كانت تفكر أن تبدأ مكالمتها بأغنية «سنة حلوة».. لكن مع التقاط الهاتف من الجهة الأخرى بسرعة ولم يكن الصوت صوت جدها؛ طار كل شيء من رأسها.. لقد كان المتكلم دايف!

ودون أن تتذكر أنها أعادت السماعة إلى مكانها أو أنها تحركت، وجدت مايفس أنها خارج الغرفة. ولم تستطع جمع شتات أحاسيسها إلا بعد أن وقف أحد المارة ينظر إليها باستغراب.. وتابعت الطريق إلى المطعم.

اشترت سندويش الجبن وتحركت مبتعدة عن طاولة البيع وأفكارها لا تزال تتردد في رأسها.. ماذا يفعل دايف في المنزل في مثل هذه الساعة؟

ربما عاد مبكراً بسبب ذكرى ميلاد جدها؟ لكن هل هذا معقول؟ جدها لن يقيم حفلة كما قال، وإذا كان هناك حفلة عشاء فبإمكان السيدة أوكنر أن تتدبر الأمر لوحدها وبنجاح.

كانت قد اقتربت من غرفة الهاتف مجدداً.. حين صدمتها ذكرى قول

كايت لها إن دايف لا يترك عمله أبداً عدا أسبوعي الإجازة.. ويوم مرض جدها بنوبة قلبية!

تملكها الذعر والارتباك.. حتى إنها كانت داخل غرفة الهاتف. لم تنتظر هذه المرة سماع صوت من الجهة الأخرى لتعرف من المتكلم، وعرفت أن عليها أن تتكلم أولاً.

قالت متلعثمة: آ.. آلو.

وثارت أعصابها في الصمت الذي تلا، ولم تهدأ أبداً حين رُد على ندائها بعد أن تعرف دايف على صوتها.. قال:

ـ لا تقفلي السماعة مجدداً مايفس.

وعرفت أنه هو الذي رد أول مرة فعلاً.. قالت وخوفها على جدها يتغلب على ضعفها الذي أثاره صوت دايف: جدي..؟

جاءها الرد:

ـ نحتاج إليك هنا.

وكان في رده كل ما تريد أن تعرفه.. لا بد أن جدها مريض جداً.

ابتلعت ريقها بقوة، وسألت بخوف:

ـ هل.. هو..؟

وفهمت كم أن وجودها ملح هناك مع رد دايف:

ـ قولي لي أين تسكنين مايفس، وسآتي بنفسي..

كانت الدموع تملأ عينيها حين تركت غرفة الهاتف الصغيرة.. لم تعد تذكر ما قاله دايف بعد «سآتي بنفسي» أو إذا كان قد قال شيئاً أصلاً. فمجرد واقع أنه أعلن بصرامة أنه سيأتي ليأخذها، لا بد يعني أن ليس هناك وقت طويل بعد وأن من الأسرع أن تسافر في سيارته السريعة من أن تبقى في انتظار القطار.

لكن دايف يحب جدها مثلما تحبه.. ولن يرغب في تركه، ليس الآن.. وليس من المناسب أن يفعل هذا لأجلها.. لقد قال «نحتاجك هنا» وهذا لا يمكن أن يعني أن جدها يطلبها.. وقاومت لتسيطر على نفسها

وهي تدخل المكتب.

قال ويليس:

ـ لقد جاءت المخابرة..

ثم رفع رأسه ليرى وجهها الأبيض الشاحب فسأل بلهفة:

ـ ما الذي حدث بحق السماء؟

وأسرع ليساعدها على الجلوس بينما مايفس تخبره لاهثة أنها اتصلت بمنزل جدها وعرفت أنه مريض جداً، وقالت له بتوتر غير قادرة على الجلوس:

ـ سأسافر إليه.. سأتصل بالمحطة و..

قال وليمها اللطيف فوراً:

ـ لن تذهبي إلى أي مكان بالقطار.. سأوصلك بنفسي.

وأخذ زمام الأمور بيده.. ثم اقترح أن الأمور قد لا تكون سيئة كما تتوقع، لكن قد يلزمها البقاء لبضعة أيام.. وتابع ليقترح أن تصعد إلى الشقة لتضع بضعة أشياء في حقيبة صغيرة، بينما يرتب المكتب ويتصل بزوجته موير ليقول لها إنه سيتأخر قليلاً.. وخطر لمايفس أن تسأل:

ـ وموير ألن تمانع؟

ابتسم مشجعاً، ولم يعد رب عملها الآن.. بل الصديق:

ـ لا تقلقي حبي.. سرعان ما سأوصلك إلى عائلتك.

وكشف أنه لاحظها عدة مرات وهي ساهمة:

ـ لا أظنك في قرارة قلبك قد تركتهم أبداً.. أليس كذلك؟

نظرت مايفس إليه وقد ارتاحت للطريقة الهادئة التي كان ينظم فيها كل شيء.. ولم يكن في نفسها ذرة ميل إلى الكذب حين ردت صادقة:

ـ لا.. أنا لم أتركهم أبداً.

* * *

١٠ ـ لماذا... لا تدري؟!

كانت أفكار مايفس في تلك الرحلة من لندن معذبة.. لكن حين أوقف ويليس السيارة أمام روزيكرز، فكرت مايفس أن أقل ما تفعله بالرغم من خوفها مما قد تجده في الداخل، هو أن تدعوه إلى الدخول لتناول شيء ينعشه قبل أن يبدأ عودته.

لكن، وقد غمرته الدهشة لرؤية أن عائلتها تبدو ثرية، فقد استعاد ويليس جأشه بما يكفي ليمسك يدها ويضغط عليها قائلاً:

ـ لا أستحسن هذا في مثل هذا الظرف.. شكراً لك حبيبتي.

أعطاها الحقيبة الصغيرة وأكمل:

ـ ستكون موير منتظرة.. لا تترددي في الاتصال بنا في المنزل أو المكتب إذا احتجت إلى مساعدتنا.

شكرته بصدق فابتسم وقال:

ـ كوني شجاعة، كوني صامدة مايفس.. كما أنت دائماً.

كان قد ابتعد في الوقت الذي صعدت فيه الدرج ووقفت بانتظار الرد على قرعها لجرس الباب.. كوني شجاعة.. لكنها لا تحس بالشجاعة.. كانت تعرف أنها بحاجة إلى كل ما لديها من قوة كي لا تنهار وتبكي إذا كانت الأمور سيئة مع جدها.

جعلها وقع أقدام عبر الردهة من الداخل ترفع كتفيها، وتبتلع غصة الخوف بجهد.

كانت تعتقد أن دايف أو واحد من الآخرين سيفتح لها الباب.. لكن

كان من فتحه السيدة أوكنر التي دهشت لرؤيتها وتراجعت إلى الوراء مبتسمة لها.. بانطباع، دايف، كايت وربك الآن مجتمعون حول فراش الجد. لكن هناك شيء عجيب.. السيدة أوكنر لم تكن تبدو حزينة كما تتوقع..

قالت بصوت هادئ، قدر ما تستطيع: جدي..

وأدركت أنها تضيع الوقت وهي تقف هنا تحلل لماذا تبدو مدبرة المنزل منشرحة لرؤيتها.

ردت السيدة أوكنر:

ـ سيكون سعيداً جداً برؤيتك.

نظرت إليها مايفس باتزان، ثم نظرت إلى السلم الداخلي.

ـ سأصعد إليه.

وتحركت بضع خطوات قبل أن تعي ما قالته مدبرة المنزل.. فاستدارت:

ـ ماذا قلت؟

كررت مدبرة المنزل قولها:

ـ إنه ليس في غرفته فوق.. بل في غرفة جلوسه.

تحركت مايفس بسرعة نرمي حقيبتها من يدها وهي تركض إلى الغرفة الصغيرة، والخوف يزداد من أن تكون قد وصلت متأخرة، وأنه الآن أكثر مرضاً من أن يُنقل إلى غرفة نومه.

دخلت غرفة الجلوس دون قرع الباب، وكانت تماماً كما تتذكرها.. ولا أثر لسرير موضوع هناك على وجه السرعة.. ولا أثر لدايف أو لابني عمتها!

ببطء، بدأ الرجل الذي سارعت لشراء، الرجل الذي ظنت أنه بحاجة إليها، يقف من على كرسيه الخشبي الظهر.. ورأت بذهول صامت، وبالتدريج، أعرض ابتسامة رأتها يوماً على وجهه.. وفي الوقت الذي استوعبت فيه أنه يبدو فرحاً لرؤيتها يوم عيد ميلاده، تمكنت كذلك أن ترى

أنه لا يعاني شيئاً أبداً!

صاح وبهجته واضحة:

ـ مايفس! لقد أتيت في النهاية!

تحركت إلى الأمام تتلعثم في كلامها:

ـ جد.. ي..

وكلمات «نحتاجك هنا.. قولي لي أين تسكنين.. سآتي..» تدور في أذنيها.

قال الجد مبتسماً:

ـ لقد وعدت أن تتصلي.. وبدأت أعتقد أنك نسيت.

تقلبت مايفس على صدمتها، وجلست على الكرسي الآخر في الغرفة في مواجهة جدها، في وقت أخذت تعي أن دايف لم يقل له بعد إنها اتصلت كما وعدت.

سألت: أنت.. بخير جدي؟

رد معترفاً بابتسامة:

ـ أنا أفضل حالاً لرؤيتك.

إنه مريض إذن.. وسألت بلطف:

ـ هل جاء الطبيب ليراك؟

اختفت ابتسامته:

ـ طبيب؟ لمجرد أنني بلغت السبعين؟ لا يعني هذا العجز.. أنا لم أر طبيباً منذ.. منذ سنوات بعيدة يوم خطر ببال دايف وجوب إجرائي فحوصات عامة.

بدأ الغضب يعتمر في نفسها ضد دايف.. لكنه يرد قليلاً للذكرى سبب حاجة جدها إلى طبيب يعتني به «منذ سنوات بعيدة».. ومع ذلك لزمها كثير من المقاومة قبل أن تتمكن من السيطرة على كل غضبها لتجد ابتسامة وهي تقول لجدها:

ـ مجرد فحوصات.. لقد أذهلتني ابتسامتك وأنا أدخل..

ولم تكمل:

ـ وهل ظننت أنني متلهف لشيء كي أعطيك مثل هذه الابتسامة؟

وسمعت ضحكة مكتومة تصدر عنه.

ثم عادت للتفكير بدايف.. وعاد إليها غضبها.. وأبقت الابتسامة على وجهها:

ـ في الواقع هذه زيارة مفاجئة.. لقد جئت مع صديق لي لديه عمل في هذا الجزء من البلاد، وهو ينتظر في الخارج لنتابع الطريق.. قلت له إنني لن أتأخر دقيقتين.

اختفت الضحكة وعاد التجهم إلى الوجه الذي تعرفه هكذا:

ـ مسافة طويلة لزيارة لدقيقتين فقط.

ـ ليس لفتاة تريد أن تقول بنفسها ميلاد سعيد لجدها الذي كانت مصممة على كراهيته.. لكنها اكتشفت أنها لا تكرهه أبداً.

تلاشت الخشونة منه:

ـ وهل أنت.. مولعة بي.. ابنتي؟

ـ بالرغم عني.

اكتشفت ساعتها مدى تأثره باعترافها والدليل بلل عينيه، لكنه لا يزال يبدو ذلك الثعلب المجوز الذي تعرفه.

وقال بسرعة:

ـ في هذه الحالة لم لا ترسلين سائقك بعيداً؟ لقد خرج دايف إلى مكان ما لكنه رتب أمر حفلة عشاء بالرغم من احتجاجي.. سيكون هنا صديق كاتلين الشاب وحتى كلارك سيأتي معه بفتاة.

ردت بسرعة:

ـ لا أستطيع.. جدي.

دفعها اضطرابها للوقوف.. وسرعان ما فكّر دماغها أن دايف لا بد خرج ليأتي بكوزي موريس.

ـ قلت لك إنها زيارة مفاجئة فقط، وتعرف أن لدي ترتيبات أخرى

لهذا المساء.

قطب الجد.. ولم تعجبه معارضتها، فأكملت: سامحني..

لكن حين لم يبدُ عليه التسامح، انحنت لتقبل خده.

كان عبوسه قد زال حين استقامت وبدا عليه شيء ما يقرب من الابتسامة وهو يقول بصوت أجش:

ـ اذهبي إذن.. وتأكدي من أن تتصلي قريباً كي أشكرك جيداً على الهدية الجميلة.

وأكمل ابتسامته.

أقفلت مايفس الباب وراءها بهدوء، وليس لديها فكرة كيف ستعود إلى لندن.. أغمضت عينيها واستندت إلى الباب تحتاج إلى لحظات لتجمع أفكارها.

ثم طغت عليها فكرة أنه ليس مهماً كيف تصل إلى لندن بقدر أهمية أن تخرج من المنزل قبل أن يفوت الأوان.

كان جسدها مستعداً للهرب.. لكن مع فتحها لجفنيها، رفضت أطرافها إطاعة الأوامر التي تلقتها من الدماغ.

حدقت برعب نحو الباب الأمامي وأحست بقدميها تتسمران في الأرض.. كانت صورة دايف في بنطلون كحلي وكنزة مماثلة، كل ما تحتاج إليه لتفهم أنها أخرت رحيلها طويلاً..

لم تلاحظ للوهلة الأولى أنه لوحده وهي تقف محدقة به.. بدا لها أكثر نحولاً.. وبدأ قلبها يخفق بشدة.

جعلتها حركة إلى يسارها تسحب عينيها عنه، لترى مديرة المنزل التي تكاد تختفي عن الأنظار عند أعلى السلم.. لكن هذا لم يكن كل شيء..

لقد اختفت مع حقيبتها! فصاحت:

ـ ماذا تفعل السيدة أوكنر بحقيبتي؟

وتحرك دايف، ولم يساعد برودة وهو يلتقيها قرب أسفل السلم في تبريد غضبها.. قال وهو يقف في طريقها:

rayqh

ـ طلبت منها أن تأخذها إلى غرفتك.

قالت بحرارة:

ـ حسناً.. بإمكانك بكل لطف أن تأمرها بإعادتها لي فوراً.. فأنا سأغادر الآن.

وبدا لها في مزاج مصمم، فلم تحاول تجاوزه كي لا يمسك بها.. وسأل متجاهلاً تشامخها عليه:

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

حسناً، ستتجاهله في المقابل.. لكنه أكمل:

ـ لم تأتي بالقطار.

ـ وكيف تعرف أنني لم آت بالقطار؟

ـ لأنني ذهبت لانتظار القطار القادم من لندن، ولم تكوني بين ركابه.

أربكها هذا.. واعترفت لنفسها أنه لم يذهب للمجيء بكوزي بل ذهب إلى المحطة على أمل أن تكون على متن القطار القادم من لندن.

ـ حسناً.. أتمنى ألا تكون أصبت بالتهاب رئوي وأنت تنتظر.

كانت عيناه تطوفان فيها يستوعب حالتها الجسدية.. ثم قال مقطباً:

ـ لقد فقدت وزناً.. أنت أكثر نحولاً.

ردت بحدة:

ـ ألسنا هكذا جميعاً؟

سأل ببطء:

ـ ولذات الأسباب مايفس.. عجباً؟

عرفت لحظتها أنها يجب أن تخرج من هنا مع حقيبتها أو دونها.. أخذت الغيرة تنهشها وعرفت أن دايف فقد شهيته للطعام بسبب الأيام الصعبة التي تسببها له كوزي موريس.. وأحست أنها تفضل الموت على أن تقول إن حبها البائس له هو الذي يجعل مذاق الطعام في فمها كمذاق النشارة.

كانت على وشك أن تخرج دون حقيبتها حين وصلت السيدة أوكنر

إلى أعلى السلم وبدأت تنزل.. وحين تراجع دايف ليسمح لها بالمرور لم تضع مايفس الوقت أبداً.

ركضت إلى الأعلى ووصلت باب غرفتها القديمة قبل أن تعي كم هي حمقاء.. فقد كان دايف إلى جانبها. وأدركت بما إنه لم ينته من كلامه معها بعد، أنه كان من الممكن أن يلحق بها إلى الخارج كذلك لو إنها خرجت من الباب.

وسرعان ما اتضح لها حين أمسك بيدها قبل أن تصل إلى مقبض الباب أن كلامه لم ينته بعد معها.. وأدارها لتواجهه فكان للمسة يده أسوأ تأثير عليها، حتى إنها اضطرت للمقاومة بكل ما أوتيت من إرادة لتهزم هذا الإحساس.

قالت بصوت هامس:

ـ ارفع يدك عني!

ولم يرد عليها فأكملت:

ـ أرفض أن يخدعني كاذب مثلك.

ـ ومتى كذبت عليك؟

ـ متى؟

نظرت إليه بعجب مذهولة لسؤاله.. ولم يكن بإمكانها التراجع فأطلقت غضبها:

ـ لماذا تظن أنني هنا لولا أنك قلت لي إن من المهم أن أحضر بسرعة؟

لم يكن هذا ما قاله بالضبط.. لكن دايف لم يكن مستعداً للتدقيق.. فقد نظر بهدوء مباشرة في عينيها، وزاد من اشتعال غضبها بقوله:

ـ لم أكن أكذب.

صاحت:

ـ بل كنت تكذب! وتعرف أنك كنت تكذب.. لقد رأيت جدي لتوي.. وليس به شيء أبداً.

شدت يدها بقوة لتتخلص من قبضته، وتلقى غضبها المتصاعد كالصاروخ صدمة أخرى حين لم يتركها.. فأكملت صائحة:

ـ لقد خدعتني..! جعلتني أعتقد..

قاطعها بصوت بارد على عكس غضبها:

ـ كما خدعتني أكثر من مرة.. لقد تعمدت أكثر من مرة أن تقوديني خلف آثار زائفة.. كما أوقعت بي متعمدة كي أظن أنك مرتزقة تسعين وراء المال.

لم تتحرك للحظات طويلة، كما لم تحاول الخلاص من قبضته بعد أن أمسك بكلتي ذراعيها.. ونظرت إليه دون كلمة، مصدومة لإدراكها أن دايف يقول إنه لم يعد يصدق أنها جاءت إلى هنا للسعي وراء كل ما تستطيع الحصول عليه!

وصدمتها ذكرى الألف جنيه التي داست عليها بكل ازدراء.. وحاولت التخلص منه مجدداً وهي تقول بحدة كنصل الخناجر:

ـ لا تقل لي إنك غيرت رأيك بي لمجرد أنني غادرت دون أن أطلب نصيباً من الألف الذي وعدتني به.

أربكه ذكرها للمال وأغضبه فهزها لتهدأ ثم قال بنفاد صبر:

ـ أوه.. بحق الله! كان من الممكن أن أكشفك قبل أن ترحلي

وشدها إلى الباب المقابل، وأصبحت بعد لحظة في ذلك القسم من المنزل الذي لم تطأه من قبل. وأقفل باب شقته الخاصة فبدأت تشك في أن السبب الوحيد الذي جعله يسمح لها بصعود السلم، كان نيته في إدخالها إلى جناحه وإلى غرفة جلوسه الخاصة حيث لا يسمعهما ولا يقاطعهما أحد.. لكن لماذا.. لا تدري!

لكنها لم تكن تفكر بوضوح في تلك اللحظات.. غريزتها هي الرفيق الوحيد لها الآن.. وكانت تلك الغريزة تقول لها إن من الأفضل أن تخرج من هنا وبأسرع وقت! لكن، ومع أنه تركها، فقد كان يقف بينها وبين الباب، وفي عينيه لمعان التصميم.

قالت متوترة:

ـ إذا كنت جئت بي إلى هنا لكي ترميني بالمزيد من إهاناتك ففكر مرة أخرى.. من الأفضل أن تفتح الباب وتدعني أخرج.

لاحظ توترها.. فهي لم تتحرك لتقترب منه أو تحاول دفعه جانباً.. وتحرك.. لكن نحوها.. وما زال الباب خلفه.

ـ لقد قلت لك أشياء رهيبة وأعرف هذا.. أعتقد أن الأسوأ كان إخافتي لك حتى الموت عن جدك. مع أنني، وقد لا تصدقين، لم أدرك أنني بالكلمات التي قلتها وأنت تحيين نيلسون كما أعرف، كانت مخيلتك النشيطة متصورة لك على أبواب الموت.

ـ أتصدق.. أنني.. أحبه؟

لم تكن تقصد طرح هذا السؤال.. لكن الصدمة أطلقت لسانها.. لأنه وهو الذي لا يصدق شيئاً عنها ودون أن تقول له شيئاً، عرف أنها تحب الرجل الذي أنكر والدها.

رد: بالطبع.

ـ لكنني لم أكن أقصد.. لقد كرهته في البداية.. أنا.. كنت مصممة أن أكرهه أكثر وإلى الأبد.

ابتسم دايف بحيرة وكأنه يعرف هذا أيضاً، حتى ولو لم يفهم السبب.. وقال:

ـ لكنك لم تستطيعي متابعة كراهيتك.

قطبت:

ـ كان يمكن لهذا أن يحصل لو إنني عدت من حيث أتيت يوم السبت ذاك. لكن.. لكن.. حسناً.. بدأ كل شيء يتآمر ضدي وقتها.. عدم وجود قطار، كايت وربك المتكبران كما كنت أعتقد، وأنت..

توقفت عن الكلام وهي تبدأ التساؤل كيف بدأت بمثل هذا الحديث؟

ـ وقررت أن تقبلي عرضي بأن أدفع لك لتبقي.. لمجرد السعادة في أن تقولي لي ما يمكنني أن أفعل بالشيك حين أعطيه لك.

www.rewity.com

سدد لها ضربة مرة أخرى. قالت متكبرة:

ـ حقاً عزيزي دايف..

وضاقت عيناه لتغيير تصرفها.. وأكملت:

ـ.. ما كان يجب أن تتصور كما يفعل جدي باستمرار أنني فعلاً ابنة أبي وأنني لا أريد شيئاً من المادة في الحياة.

سأل:

ـ هل تشيرين إلى أنك ورثت نزعة الارتزاق عن أمك؟

كانت تتوقع أن يحاول الرد عليها بقسوة كما يفعل دائماً معها.. ومع أنها كانت تريد أن ترد بأن أمها لم يكن في اهتماماتها سوى العطاء والحب، إلا إنها كبتت اندفاعها بشدة وعادت إلى تكبرها تقول بانتفاخ:

ـ لقد وجد جدي من الضروري أن يرد على رسالتها التي تخبره فيها بموت ابنه، داعياً إياها إلى توفير طابع البريد على نفسها إذا كانت تنوي الكتابة إليه مجدداً لتطلب المساعدة.. وفكر بهذا بنفسك لتفهم.

لكنها تمنت لو لم تقل له هذا، فقد كان على وشك أن يفهم دون حاجة لدعوة منها، فقد ضاقت عيناه ورماها بسؤال حاد:

ـ تلك الرسالة من نيلسون إلى أمك.. متى رأيتها أول مرة؟

ـ لم أكن أفتش في أغراض أمي وهي حية إذا كان هذا ما ترمي إليه.

لكنها رأت أن هناك أثر ابتسامة على فمه حين قال بنعومة:

ـ هكذا إذن!

اضطرت أن تسأل مع أنها لم تكن مهتمة كثيراً برده:

ـ هكذا ماذا؟

كان لا يزال يبتسم وهو يرد.

ـ لقد كان هذا سبب مجيئك إلى هنا وأنت على استعداد لكراهية نيلسون.. كانت أمك قد ماتت لتوها ووجدت رسالة جدك التي سببت لها الألم.

طرفت عينا مايفس وجف فمها لدقة تصوره.. وأكمل:

ـ لو لم تكن مواعيد القطار ضدك، ولولا أنني أيقظت كبرياء باريت فيك بعرضي المال عليك، لما كنت وافقت على قضاء ثانية أخرى في روزيكرز بعد أن أعدت الرسالة لنيلسون.

ـ لقد طلبت أمي مني أن آتي إلى هنا.

ـ وهي تموت؟

كانت شهقتها المذهولة لدقة تخمينه التأكيد الذي يريد.. فقد صمت لحظة ثم تابع:

ـ واضح أن أمك طلبت منك المجيء إلى هنا لأنها كانت تحبك، ولم تستطع تحمل أن تراك وحيدة في العالم بينما لديك عائلة لا تبعد عنك كثيراً.

قالت تحاول التغلب على مشاعرها:

ـ أنت تنسى أنني.. أنني نجحت تماماً.. في إقامتي المطولة هنا.. تلك اللآلىء.. كانت ثمينة حقاً.

ابتسم، وقلقت مجدداً:

ـ أوافق معك.. كانت ثمينة.. ومن المدهش كذلك كم ازدادت قيمة منذ آخر مرة ثمنت بها لغرض التأمين.. وكان هذا في الأسبوع الماضي فقط، حين طلب مني نيلسون أن آخذها لإعادة تثمينها.. وذكر لي عفوياً أنه لم يكن سعيداً برفضك لها وهي لآلىء جدتك.. مايفس.

شعرت بالإحباط فحاولت إبراز ذكرى أخرى:

ـ ولم تكن سعيداً جداً عزيزي دايف حين رأيتني أخرج من غرفة جلوس جدي ومعي رزمة أوراق نقدية يوم سافرت إلى لندن؟

ظنت أنها نالت منه أخيراً وأخرجته عن مسار تفكيره.. لكنها فغرت فاها عجباً وهو يرد:

ـ وهل نسيت أنني في الليلة السابقة ضممتك دامعة العينين بين ذراعي؟ ولم تكوني مدعية حينها.

تحدته:

ـ وكيف لك أن تعرف؟

رد ببرود:

ـ لأنني لحظتها وكما سبق وقلت.. كشفتك مايفس.

ـ أوه

وتمتمت:

ـ أجل.. لكن.. كنت غاضباً جداً وقت الفطور بسبب المال الذي أخذته من جدي بالتزلف.

ـ بالتزلف؟ أعرف نيلسون حقاً، فهو مراوغ بما يكفي لدفعك إلى أخذ ذلك المال أردت هذا أم أبيت.

بينما كانت تحلل هذا الكلام وفكرة أن دايف لم يكن غاضباً بسبب المال، تساءلت ما سبب غضبه إذن وقت الفطور؟ وأكمل:

ـ ألم أذكر لك أنه قال لي إنك متكبرة جداً ومستقلة جداً، حتى أنك لم تقبلي عرض المصروف الشهري الذي كان يرغب في منحك إياه؟

عرفت مايفس أنه هزمها ولم تقدر أن تفعل شيئاً سوى أن تعترف بالهزيمة.. فقالت:

ـ حسناً.. موافقة.

لقد نفدت ذخيرتها وانكشف غطاؤها، ولم تعد لديها سوى رغبة واحدة وهي أن تخرج من هنا قبل أن يحللها أكثر من هذا، وأكملت:

ـ سأعترف أنني أملك كل هذه الصفات الجميلة التي لم تكن تصدقها عني حتى تلك الليلة..

صمتت وهي لا تزال تشعر أنها في منزلق خطر:

ـ إذا كنت تعذرني الآن.. فسأقول عمت مساء..

وضع يده على ذراعها ليمسك بها وهي تحاول تجاوزه وأدارها لتواجهه رغم محاولتها المتوسلة إليه لتركها، فهي لن تستطيع إخفاء الضعف الذي يتملكها لمجرد وجودها في غرفة واحدة معه.. ولا تجاهل الإحساس بيده على ذراعها والذي يجعلها ترغب بالارتماء في حضنه.

قامت بجمع كل الازدراء الذي تستطيعه ونظرت بتكبر إلى اليد التي على ذراعها، لكن ضحكته القصيرة الخشنة وقوله:

ـ أوه.. يا إلهي مايفس.. أنت لا تقدرين بثمن.

جعلت ازدراءها المزيف يتبخر.. وسألت:

ـ وماذا فعلت الآن؟

سمعته يقول بصوت لطيف:

ـ دخلنا إلى هنا لبعض الخلوة كي تستطيعي رمي كل حقدك في وجهي لأنني أخفتك على جدك نيلسون.

وكأنما هي التي دخلت طوعاً إلى شقته.. وأخذت تزداد ارتباكاً حين أكمل:

ـ لقد اختلفنا في أشياء كثيرة.. أعترف. مع أنني أتمنى أن لا يضيع معظم الذي قلناه هباء.. مع ذلك وبعد كل هذا.. أنت مستعدة للذهاب؟

اضطرت للاعتراف:

ـ أنت تشوش تفكيري.

كانت عيناه السوداوان تخترقانها وتبعدان عنها أي عذر في رغبتها بأن تلكمه على أنفه أولاً. وقال بصوت رقيق فجأة: أنا آسف.

لكن هذا لم يساعد في التخفيف من اضطرابها.. فقالت:

ـ حسناً.. لا تفعل هذا مجدداً.

فجأة، اضطرت أن تضحك.

وفجأة كذلك توقفت عن الضحك. فقد كان ينظر إليها ويستمع إلى ضحكتها الخفيفة المتسلية وهو يقترب ويبدو عليه أنه يرغب في معانقتها.

أبعدت وجهها عنه بسرعة، ثم رأت أنه يأخذها إلى الأريكة في الغرفة ليجلسها قربه.

قالت: أنا لا..

وكادت تقف، لكنه قال:

ـ ألا تريدين معرفة لماذا وجدت من الضروري أن أقول لك كم نحن

بحاجة ماسة إليك هنا؟

ـ ماسة؟

جعلها شيء ما في وجهه تبقى جالسة.. كان فيه نظرة جادة.. و.. وشيء آخر لم تستطع تحديده.. ربما لأنها لم تره من قبل ينظر إليها هكذا.

هز رأسه:

ـ أجل.. حاجة ماسة. أعرف الآن.. أنك مطلوبة هنا منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه جالسة في غرفة الاستقبال، والشمس تجعل من شعرك هالة ذهبية.

أحست بحشرجة في أنفاسها.. وسألته في محاولة للخفة:

ـ وهل افتقدتم لي؟.. كلكم؟

ـ كلنا.. أجل.

أمسك إحدى يديها، وقال مكملاً:

ـ لكنني افتقدت إليك أكثر من أي شخص آخر مايفس.

ـ أوه؟

وهذا كل ما استطاعت أن تقوله ثم ابتلعت ريقها بصعوبة ونظرت إليه مشدوهة.. وأكمل:

ـ لقد غبت طويلاً. لهذا كان من المهم جداً أن تعودي بسرعة. لهذا السبب لم أكن أفكر بوضوح.. بل لم أفكر أبداً في أنك متصابين بالذعر لأجل نيلسون.. كنت أحتاج إليك هنا.

سرى ارتجاف في جسدها بدا ملموساً.. وعرفت أنه وصل لدايف.. إلا أن صوتها أصبح أجشاً وهي تسأله:

ـ نعم.. لماذا؟

أمسك بلطف يديها المرتجفتين.

ـ لأنني كنت أعيش في الجحيم منذ ذهبت.

ـ كنت.. مضطرة للذهاب.

أسرت جاذبيته عينيها وأجبرتهما أن تبقيا مع عينيه، وبدأ اللون الزهري يغزو وجهها.. كان صوت صغير في رأسها يقول لها إنها يجب أن تهرب.. الآن.. وكرامتها لا تزال سليمة.. لكن دايف كان لا يزال ممسكاً بيديها.. وشكت كثيراً بمقدرتها على ذلك؛ فساقيها لن تحملاها.

قال دايف:

ـ آمل أن أعرف سبب اضطرارك للذهاب. مع أنني في البداية لم أصدق أنك ذهبت.. ثم غضبت منك عندما تأكدت من ذهابك.. وبعد ذلك غضبت من نفسي لأن هذا أزعجني.

كانت شهقة مايفس خفيفة لكنها مسموعة، وقال:

ـ لقد طلبت منك البقاء.. وأقنعت نفسي أن هذا فقط لأجل نيلسون..

تجرأت على السؤال بقدر ما أوتيت من صوت ضعيف:

ـ لكن.. لم يكن.. الأمر هكذا؟

هز رأسه نفياً وقال معترفاً:

ـ لقد اعترفت لنفسي بالسبب مؤخراً.. لم أعترف به حتى حين أصبح المنزل ميتاً دون وجودك.. كان الصباح يبدأ مملاً دون تحية الصباح المشرقة «صباح الخير»، لكن حين وصلت هديتك لنيلسون، صدمت لأنك لم توصليها بنفسك بالرغم من حبك له ومعرفتك أن السبعين هي ذكرى ميلاد مميز له.. وأدركت أنك لا تنوين أبداً وضع قدمك في روزيكرز مرة أخرى.. واضطررت إلى الاعتراف.

جفت حنجرتها لكنها اضطرت إلى إجبار الكلمات على الخروج:

ـ بماذا.. اضطررت إلى..

وابتلعت ريقها بقسوة:

ـ.. أن تعترف.. دايف؟

ـ ألم تخمني بعد؟

هزت رأسها، إنها تحتاج يائسة أن يقول لها.. واحمرت حين اقتربت

يده من جانب وجهها:

ـ ألم تخمني أنني كنت أفقد عقلي بهدوء وأنا أفكر بوجودك في لندن مع الرجل الذي أخبرتني يوماً أنك تحبينه؟

وتمسكت يداها بيديه دون إرادة منها، وكان على وجهه ابتسامة:

ـ لا.. أنا واثق أن لا فكرة لديك عما كان إحساسي وأنا مضطر للعيش أياماً وأسابيع وأنا أفكر بك.. وبما أنك لا تشبهين أبداً الفتاة التي تحاول أن تجعلني أصدق أنها لا تأبه أبداً لما أظنه بها، فقد اكتشفت أنني السبب في هربك.

عرفت مايڤس الخوف والأمل معاً وتلعثمت مرة أخرى وهي تفتش عن الكلمات:

ـ ألم تكن.. ترغب في.. إبعادي؟

ورأت الرد في عينيه السوداوين الصادقتين وهو يبتسم برقة ويقول:

ـ أريدك هنا مايڤس.. هنا في بيتي.. ودائماً إلى هنا تنتمين.. عزيزتي.

تنهدت مايڤس.. لكنها كانت لا تزال خائفة من أن تكون قد فهمت خطأ.. وزاد ارتجافها وهي تسأل متمتمة أن تكون مخطئة.

ـ ألأنني.. حفيدة.. نيلسون باريت؟

أمسك كتفيها بلطف ونظر إلى عمق عينيها الخضراوين وقال هامساً:

ـ لأنك تملكين قلبي.. حبيبتي.

كلمته الهامسة حبيبتي، التي تلفظ بها، جعلت يديها تشتدان معاً وهما في حجرها.. إنه يعني بدون شك أنه يحبها.. أليس كذلك؟ لا بد أنه يعني هذا بالرغم من كل شيء؟ وتذكرت الابتهاج الذي كانت تشعر به أيام كانت تواجهه.. فهل كان يشعر بالشيء ذاته؟ هناك الكثير مما تريد أن تسأله.. هل كان الحب يلوح في الهواء ساعتها؟ ولأول مرة منذ عرفته بدا لها متردداً بشكل غريب وهو يسأل:

ـ هل كنت مخطئاً في ظني أن من المستحيل أن تتجاوبي معي كما

كنت تفعلين وأن تحبي شخصاً آخر؟

كانت مختنقة أكثر من أن تجيب.. وأكمل:

ـ هل كنت مخطئاً في ظني.. أن أعصابك تتوتر حين تريني وأن ارتجافك الآن سببه أنك تشعرين بشيء نحوي عدا الكراهية التي أستحقها منك؟

صاحت محتجة: دايڤ..

ولم يخرج سوى اسمه من فمها، فأكمل والتوتر لا حدود له على وجهه:

ـ هل أنا مخطىء في الظن أن تلك اللحظات التي شاركناها تلك الليلة التي وجدتك تبكين فيها، هي لحظات مميزة يمكن أن تصبح دائمة؟

عرفت من عذاب الانتظار في عينيه أن عليها إظهار مشاعرها التي تهدد بدفع دموع الفرح إلى وجهها.. فقد بدا دايڤ في آخر مراحل تحمله.. ولا تستطيع تحمل رؤيته قلقاً هكذا.

تمكنت أن تسأل بخجل:

ـ وهل تقول.. إنك.. تحبني؟

رد لا يخفي شيئاً:

ـ أقول.. إنني أعبدك مايڤس.

وتساقطت الدموع على وجهها وكانت دموع فرح حقيقي وتشجيع مصحوبة بابتسامة حب.. وقال دايڤ:

ـ أحبك كثيراً عزيزتي مايڤس، إلى درجة أنني لن أعرف لحظة راحة إلى أن تصبحي زوجتي.

لم يكن بإمكانها منع دموعها وتنهدت قائلة:

ـ أوه.. دايڤ!

وشدها بين ذراعيه، وكانت نعمة سماوية لها أن تستريح على صدره وذراعاه حولها.. قبل جبينها بحنان.. ثم تحرك وهي بين ذراعيه، ليبعدها عنه قليلاً ناظراً إلى وجهها.. ومسح دموعها، ومرت لحظات لا

عمر لها ينظران فيها إلى بعضهما.. ولم يعد في نفسها أي شك عما في قلبه.

أدركت مايقس وهي تتنعم بنظرة حبه لها أنها لم تقل له بعد إنها تحبه. لذا أصيبت بصدمة بعد أن فتحت فمها لتخبره عن حبها، لتجد أن غيرتها هي التي تكلمت لتسأله:

- وكوزي موريس؟

رد عليها بهدوء:

- وويليس غراهام؟

صاحت:

- ويليس غرا...!

لكنها ابتسمت.. فمن نظرتها إلى مجرى الأمور وشعورها بالغيرة من كوزي، وجدت أنه يحق لدايف وقد عرف اسم المتصل بها ذلك اليوم أن يعتقد أنه الرجل المجهول الذي أقنعته بأنها تحبه.

قالت معترفة:

- ليس.. هناك رجل آخر.. كنت أكذب.

مع أن دايف بدا سعيداً لسماعه هذا، إلا أنه لن يكتفي قبل أن يعرف من هو ويليس غراهام.

- ولماذا كان يتصل بك؟

- ويليس هو الذي جاء بي اليوم إلى هنا.. إنه شخص رائع.. ومتزوج سعيد، ولديه ولدان جميلان. كنت أعمل في مكتبه ولم يكن سعيداً ببديلتي.. وهو كذلك صاحب منزلي.. لذا حين أرسلت له الإيجار وقلت إنني سأبقى مع عائلتي، فتش عن الاسم في الدليل واتصل ليطلب مني العودة إلى العمل معه.

- وهذا ما فعلته؟

- لقد تركته سكرتيرته الجديدة.. واتفقت معه على العمل يوم ذهبت إلى لندن.

ثم سألت وصوتها متردد:

- لماذا كنت غاضباً ذلك الصباح دايف؟ إذا.. إذا لم يكن السبب إعطاء جدي المال لي؟

- كنت أشعر بغيرة قاتلة.. ولم يعجبني هذا.. كنت قد قلت لي إنك تحبين شخصاً آخر وإنه يعيش في لندن.. ولم يساعدني كثيراً قولك إن بعض العناق مميز أكثر من غيره..

وابتسم بقلق.

ردت بنظرة خجل منها:

- حسناً.. هذا صحيح.

ضمها إليه وقال مع أنفاسه:

- أيتها الخبيثة.

ولم يكمل مع تعانقهما بشدة. كان وكأنه يتحرق شوقاً لعناقها، ولم تتردد مايقس أبداً فالتفت بذاها حوله.. إلى أن أحست أنها دون أنفاس.. وعندما أبعدها دايف قليلاً وجدت صعوبة كبيرة في تذكر ما كانا يقولانه قبل العناق، أو ما إذا كانا حقاً يتكلمان عن شيء.

تمكنت أخيراً أن تسأل:

- أنت.. أحست.. بالغيرة؟

اعترف:

- كدت أجن منها حتى قبل أن أدرك لمَ أنت ضرورية جداً لي.. كنت أغار.. حتى إنني لم أستطع تحمل أن يلمسك كلارك وهو يعلمك القيادة.

ظهرت الدهشة في عينيها لمعرفتها أن هذا هو السبب الحقيقي الذي دفعه إلى ترتيب دروس قيادة لها، وأكمل يخبرها:

- بدأت بوادر الغيرة تتحرك حين وصلتك رسالة عليها خط رجل.. ثم حين التقطت الهاتف لأجد رجلاً يقول إنه ويليس غراهام وإنه يطلبك.. لكنها بدأت فعلاً تزعجني ليلة الحفلة الراقصة في بيرويك. كنت تبدين

www.rewity.com

جميلة جداً والرجال يصطفون ليرقصوا معك. . ووجدت نفسي أفكر بأنني سأكون غبياً لو انضممت إلى ذلك الصف.

ـ لكنك راقصتني.

ـ وأقنعت نفسي أنني أفعل هذا لأنني لا أريد لشخص من نوعية جاك دانتون أن يقترب من روزيكرز حين طلب منك موعداً. . وهذا ما أعرف أنه فعله.

صمت قليلاً ثم سألها وابتسامته تضعف:

ـ هل ستغفرين لي حماقتي؟ كان يجب أن أعترف يومها بأنني أحبك. . أعترف أنك بدأت تؤثرين علي بعد أن رأيت جدك متحمساً لإبقائك هنا واستخدمته حجة لأطلب منك البقاء.

ـ تطلب مني؟ لقد عرضت عليّ مالاً لأفعل.

ـ سامحيني. . كل ما أملك هو لك.

كانت مايفس على استعداد لأن تغفر له كل شيء وأي شيء. . لكن وهي تبتسم، ذكرها حديث دايف عن جدها بشيء. . وسألت:

ـ ماذا كنت تفعل في البيت باكراً حين اتصلت؟ أكان السبب عيد ميلاد جدي؟

قال مبتسماً:

ـ لم أذهب إلى العمل اليوم. . كنت في طريقي لأخرج وتركت مائدة الفطور لتوي، حين قال نيلسون بكل عفوية، وهو الذي لا يكشف أوراقه أبداً مرة واحدة، إنه يأمل أن تفي بوعدك وأن تتصلي اليوم، وهكذا أمضيت النهار كله في مكتبي ويدي جاهزة لالتقاط السماعة عند أول رنة.

صاحت: أوه دايف.

وجاء دورها لتعانقه بخجل والدموع تحرق عينيها لفكرة انتظاره طوال اليوم إلى أن اتصلت في الرابعة من بعد الظهر.

اشتدت ذراعاه حولها. . وفكرت مايفس أنها لن تكون يوماً أسعد من هذه اللحظات. . ولم تشعر بسعادة أقل حين أ[illegible] قليلاً ليقول إن على

وبليس غراهام أن يفتش عن سكرتيرة له في الحال، وتذكرت كوزي موريس. . وسألت:

ـ مثلما ستضطر كوزي موريس إلى التفتيش عن. . مرافق آخر؟

كانت تبتسم وهو يرد:

ـ حبيبتي. . لم يكن لدي صبر لأن أصغي إلى أي امرأة بمن فيهن كوزي موريس. . منذ تركتنا.

ـ لكنك كنت تخرج كثيراً.

ـ لم أكن قادراً على البقاء في المنزل. . عندما كنت هنا كنت أعرف أنني متوتر وقلق. . وحين غادرت وأصبح المنزل موحشاً كالقبر، لم أستطع البقاء فيه دون وجودك.

ابتسم وأكمل:

ـ كنت قد واعدت كوزي مرة بعد الحفلة الراقصة، لأحاول جعل نفسي تصدق أن كل النساء سواسية بالنسبة لي كما أعتقد. . لكن موعداً واحداً معها كان يكفي لإقناعي أنها أصبحت مملة أكثر من قبل. . وأن لا شيء وراء جمالها البارز أكثر من «البودرة» التي تضعها على وجهها وتملأ رأسها.

ضحكت مايفس:

ـ تقول أحلى الأشياء دايف.

مالت ضحكته ضحكتها، ثم تحوّل إلى الجد ليسأل: أتحبينني؟

ـ تعرف أنني أحبك.

استرخى وقال:

ـ شكراً لله على هذا.

ثم أوقفها فجأة على قدميها وأنفاسه متحشرجة:

ـ يجب أن نظهر وقت العشاء من أجل نيلسون.

نظرت إلى البنطلون والقميص اللذين ترتديهما:

ـ لكن ثيابي ليست مناسبة لعشاء ميلاد.

مرت عينا دايف عليها ونار الحب تتأجج فيهما.

ـ سيسامحك جدك على أي شيء لمجرد رؤيتك هنا.

كان عليه أن يعانقها للمرة الأخيرة، ثم أمسك يدها يشدها بسرعة إلى الباب.. لم يكلمها ثانية إلى أن أصبحا في الخارج وأقفل الباب خلفه.. ثم وضع ذراعه حولها وأدارها نحو السلم وتوقف لحظة ينظر فيها إلى عينيها المشعتين.

ـ خاصة..

رفعت نظرها إليه وقلبها في عينيها فنسي ما كان يقوله وكرر بصوت أجش:

ـ خاصة.. حين يسمع ما سنقوله له.

* * *

www.rewity.com rayah